شعرية الرواية الواقعية

زقاق المدق لنجيب محفوظ انموذجا

الباحثة الأستاذة الدكتورة وسام علي الخالدي جامعه الكوفه / كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية

The poetic text of the narrative in realistic morels z uqag Al_madaq By Najeeb Mahfouz is an example of an analytical study

Researcher /prof. Dr wisam Ali Alkhalidi
Wisam.alkhalidi@uokufa.edu.iq

Summary of the study of poetic text

The narrative text in realistic novels, the novel by Zuqaq Al-Madaq by Najeeb Mahfouz, as an example It is known that the term poetry is a modern old term at the same time, as in classical times it meant literary race. In the modern era, this term has taken on a broader meaning, as it used an expansion in every subject outside of poetry that would arouse the feeling and emotion, so it was used in other arts such as poetry and music The scope of this word did not stop expanding until today it contains a special form of art, which is the novel that was chosen on the poetry of the novel Zuqaq Almdk that carried poetic manifestations through methods of simile, metaphor, displacement and other methods that increased the novel beautiful in its artistic architecture.

Key words

Poetic realistic fictional text,Realism in the novels of Nagib Mahfouz,Zuqaq Al- madaq ,The fictional characters in the novel of Zuqaq Al- madaq ,Poetic Arabic novel,Nagib Mahfouz

ملخص الدراسة

من المعروف أن مصطلح الشعرية مصطلح قديم حديث في الوقت نفسه إذ كان يعني في العصور الكلاسيكية جنسا أدبيا.أما في العصر الحديث فقد أخذ هذا المصطلح معنى أوسع إذ استعمل توسعاً في كل موضوع خارج الشعر من شأنه أن يثير الاحساس والانفعال فاستعمل في الفنون الأخرى كالشعر والموسيقى ولم يتوقف مجال هذه الكلمة عن الاتساع حتى أصبحت تحتوي اليوم شكلا خاصا من أشكال الفنون وهي الرواية التي وقع الاختيار على شعرية رواية زقاق المدق التي حملت مظاهر الشعرية من خلال أساليب التشبيه والاستعارة والانزياح وغيرها من الأساليب التي زادت الرواية جمالا في معمارها الفني.

الكلمات المفتاحية

شعرية النص الروائي الواقعي، الواقعية في روايات نجيب محفوظ، زقاق المدق ،الشخصيات الروائية في رواية زقاق المدق

المدخل شعرية الرواية العربية

نجيب محفوظ

مفهوم شعرية الرواية:

الشعرية مصطلح قديم حديث في الوقت ذاته , إذ كان يعني في العصور الكلاسيكية جنسا أدبيا معينا , أي القصيدة التي تتميز باستعمال النظم , أما في العصورالحديثة فقد أخذ هذا المصطلح معنى أوسع, إذ استعمل توسعا في كل موضوع خارج الشعرمن شأنه أن يثير الاحساس والانفعال , فاستعمل في الفنون الاخرى مثل شعرالرسم وشعر الموسيقى , حتى في الاشياء الموجودة في الطبيعة فقد نقول عن منظر جميل أنه شعري , ولم يتوقف مجال هذه الكلمة عن الاتساع , حتى أصبحت تحتوي اليوم شكلا خاصا من أشكال الفنون وهي الرواية.[1]والشعرية في الرواية تعني السمات التي تظهر على النص بفعل ترتيب وتحسين معينين , بحيث تؤدي هذه التحسينات إلى ظهور اسلوب شعري يطغى على النص و يضفي عليه متعة متأتية من المحاكاة ، وتناسب التأليف والموسيقى بمعناها العام , ويرى جان كوهن أن الشعرية: الطاقة المتفجرة في الكلام المتميز بقدرته على الانزياح والتفرد وخلق حالة من التوتر,

ويفهم مما تقدم أن الشعرية هي الوسيلة التي يلجأ اليها الاديب لتوسيع المقولات التي تسمح له بالقبض على الوحدة والتنوع في الاعمال الأدبية , أي البحث عن القوانين التي تتحكم بالأبداع كما يقول بعض الدارسين.[2]وتمتاز اللغة الشعرية في الرواية بميزات عدة ,منها الإنزياح , فالإنزياح كما هو موجود في لغة الشعر , فانه موجود في لغة النثر (الرواية) , والفرق بينهما هو فروق كمية وليست نوعية , إذ أن الإنزياح الموجود في لغة النثر أقل من الإنزياح الموجود في لغة الشعر.[3]ومن مميزات لغة النثر ايضا, والمتمثل في الرواية (النثر) والسجع والتكرار والفونيم والمقطع , وكذلك ما تولده تغيرات الاحداث والافكار من إيقاع ,ومن ذلك يتبين أن الإيقاع (الوزن والقافية) خاصيتان متعلقتان باللغة شعرا ونثرا.[4]أما الترميز والمتمثل بالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها من اساليب المجاز , فهو موجود في لغة النثر بكثرة وافرة إذ يستعملها الأديب للتأثير على السامع , ونقل تجاربه الى الاخرين.

من الجدير ذكره أن الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة قد استأثرت مسميات مختلفة واشكال متعددة , منها نظرية النظم عند الجرجاني وشعرية ارسطو والأقاويل الشعرية المستنده إلى المحاكاة الشعرية للدلالة على الأبداع , فلا نعدم أن نجد لهذه الدراسة جذوراً في الموروث الأدبي والرواية هي شكل من أشكال القصة لا تقل أهمية عن غيرها من الفنون الأدبية فهي الأقدر على التعبير عن هّم الإنسان المعاصر ومناقشة قضاياه , المركبة والمعقدة , سواء أكانت ثقافية أم سياسية أم اجتماعية , وهي تعد وريثة الملحمة لدى المجتمع الأوربي الذي وجدها معبرة عن تشابك العلاقات الإنسانية وتضاربها أحيانا , لذلك تعد أكبر الانماط السردية من حيث الحجم في العصر الحديث ,[6]

فالرواية هي إعادة كتابة التجربة البشرية بطريقة فنية بعيدا عن أجواء الاسطورة , إذ تقترب من الواقع إذ تتميز بأحداث واقعية وشخصيات حقيقة فيها تحديدا للزمان والمكان.

أما اسلوب الرواية ولغتها فهي لغة نثرية بسيطة خالية من التعقيد والغرابة ، الفاظها واضحة لا تحتاج إلى عناء كبير في فهمها , لكنها تمتلك القدرة على تصوير العالم الروائي بأحداثه وشخصياته وزمانه ومكانه بما يعطي الكاتب لكلماته من قدرة على الايحاء من خلال تركيبها في السياق , لذا لابد للروائي من دراسة اللغة وطاقاتها و الفاظها وما تحمله من خيال وابتكار وإيجاد علاقات جديدة بين المفردات , لأن لغة الرواية تكون تصويرية بالدرجة الأولى وتمتاز بانسيابيتها ومرونتها لتواكب المتغيرات الحياتية الطارئة , ولأن هدفها الأساسي تجسيد رؤية الكاتب وفلسفته الجديدة وموقفه من الحياة.[7]

رواية زقاق المدق:

تمثل رواية زقاق المدق تجسيداً للسلبية والضياع اللذين كانت عليها مصر أثناء الحرب العالمية الثانية , فمن خلال الرواية عكس الكاتب نجيب محفوظ الآثار المدمرة التي أحدثتها الحرب , كاشفاً السلبيات التي إعترت الكثيرين , وقد عمل على تصوير الأحداث منذ الوهلة الأولى , فالعنوان الذي أختاره لروايته (زقاق المدق) يوحي للقارئ بالأحداث مسبقاً فالزقاق في اللغة شويرع لا منفذ له ,أو أنه شارع ضيق كالممر[8] , وبإضافة الزقاق الى المدق , ينقل لنا الوضع الذي يعاني منه الزقاق وأهله , وقد أتخذه الراوي رمزا للأحداث التي مر بها المجتمع المصري في أثناء الحرب وبعدها.

و في رواية زقاق المدق يختفي أمامنا البطل الواحد أو النموذج المحدد , لتبرز صورة شمولية لمجموعة أشخاص يتحركون في مسارات متعددة , فتدور الرواية حول امرأة تدعى (حميدة) هذه الشخصية التي جعلها الراوي رمزا لتلك القيم المجسدة لمعنى الحرب من قلق واضطراب وفوضى , فهي تجسد التشوهات الخطيرة التي أحدثتها الحرب ,من خلال شخصية حميدة وهي فتاة يتيمة نشأت في كنف امرأة تبنتها كانت صديقة لأمها , وهي جميلة ترى أن من الكفر أن يفنى هذا الجمال ويذوب في هذا الزقاق المعدوم , وهكذا سيطر عليها هوس الخلاص من هذا الزقاق وسعت للخلاص منه بالزواج من رجل قادر على تخليصها من هذا الزقاق , ولكن شابا وسيما أنيقا ذا منبت زقاقي يعمل حلاقا يدعى (عباس الحلو) يتوهج دمه بحبها فكان يترصدها ويتوسل إليها , وفي يوم تستجيب له كمن يقنع بعد انتظار الغزال بالأرنب , بشرط أن يترك مهنة الحلاقة ويعمل في ورشة الجيش البريطاني مع صديقه حسين كرشة , فيترك الزقاق من أجل الحصول على حميدة على الرغم من تعلقه بالزقاق [9] قائلا لنفسه بصوت كالنواح " **أنت السبب يا حميدة , أنت ,أنت السبب**" [10]إلا أن حميدة هذه الشخصية القلقة تُخلف بوعدها لعباس الحلو ما أن يتقدم لخطبتها سليم علوان ,

وهو رجل ثري صاحب وكالة تجارية , ينصب المال شلالا في حضنه , وكانت حميدة بغيته المنشودة ومطلبه الملح , في حين كانت حميدة ترى فيه بطاقة الخلاص من حياة الزقاق وبؤسها , ولكن سرعان ما يقع سليم علوان فريسة ضعف القلب , فتتبدد أحلامها وتذر أمانيها مهب الرياح.

وسط هذه الظروف يظهر فرج إبراهيم في الزقاق , حين كانت حميدة تعاني مرارة اليأس ,وقد نبذت من أحلامها عباس الحلو ,وكان فرج منحرفا ولكن ليس من النوع المألوف بل هو ذو براعة ومستوى عالٍ , إذ كان يسكن في حيٍ راقٍ , وتظهر عليه ملامح اليسر , وكان فرج يترصد لصيده – حميدة – في قهوة المعلم كرشة حيث الطريق الذي اعتادت حميدة أن تقطعه يومياً , وقابلها فرج بما له من تأثير وهيمنة وتجربة سابقة , وأعلن لها بحبه وانه سيخرجها من هذا الزقاق فهي قد خلقت لتؤخذ قائلا لها: " **لا البيت بيتك ولا الأهل أهلك... ومن الكفر أن يعيش جسم حي نضر في مليئة بالعظام النخرة** "[11] , فتركت الزقاق وذهبت إلى مدرسة إبراهيم فرج ولم تستطع الخروج منها , وفي يوم يعود عباس الحلو إلى الزقاق وعلم باختفاء حميدة , فيفتش عنها في كل مكان ثم يعثر عليها وأخبرته أنها مجبرة على هذا العمل من جانب رجل , معترفة له بأن أحلامها هي من أضاعتها وأغرقتها في هذا المستنقع القذر , ثم طلبت منه أن يتركها لقد فات الاوان على إنقاذها , ولكنه أصر أن يجعل فرجاً يدفع ثمن ما عمله بحميدة.وفي يوم يمر عباس وصديقه على حانة فيجذب عينيه منظر غريب عنه شهقة، وتصلبت عضلات وجهه ,إذ رأى حميدة في جلسة شاذة بين نفر من الجنود تشرب الخمر , ونسي ما كان في علمه من مهنتها , فأندفع إلى الحانة كالمجنون.ورمى حميدة بزجاجة جعة فارغة فأصابت الزجاجة وجهها , وانقض الجنود على عباس الحلو وقتلوه , وعاد حسين كرشة إلى الحارة قائلا مات عباس الحلو قتله الإنكليز, في حين أن حميدة تماثلت للشفاء " ودخلت في طور النقاهة وأمها تحلم بجني ثمار هذا الكنز المترع "[12].من خلال عمل حميدة المنحرف قيما واخلاقا.[2051]

المبحث الأول

❖ شعرية الأحداث في رواية زقاق المدق:

الحدث من أهم عناصر الرواية ,فهو يمثل العمود الفقري لها , لأن الرواية معنية بتصوير الأفعال البشرية الواقعية ضمن طابع فني خاص , وهي ليست أحداث متراكمة من دون علاقات تربطها , بل لكل حدث بداية مشوقة وجذابة لتكفل للقارئ الاستمرار والمتابعة , وسطاً يتمتع بالمفاجئة والتجديد , ونهاية ليست بالضرورة أن تكون حلا لمشكلة الرواية، بل قد تكون النهاية مفتوحة ومثيرة للتأمل والتفكير.[13] إن بناء الأحداث وترتيبها وتسلسلها يسمى بالحبكة , فالحبكة هي سلسلة الأحداث التي تجري في الرواية مرتبطة فيما بينها , ولا تأتي العقدة أو الحبكة اعتباطاً بل نتيجة عمل الراوي الواعي والتخطيط المسبق , حتى يصل بالقارئ إلى النتائج.[14] وقد تبنى الأحداث – الحبكة– على مجموعة حوادث مترابطة , تسير في خط مستقيم حتى تبلغ النهاية وتسمى بالحبكة المتماسكة , في حين تبنى أحداث الرواية في البعض الأخر على مجموعة من الحوادث المنفصلة التي لايربط بينها رابط , وإنما تعتمد على المصادفة أو البيئة أوحركة الشخصية الرئيسة وأفعالها أو الفكرة العامة في الرواية , وتسمى حينئِذ بالحبكة المفككة, والحبكة بنوعيها –المتماسكة والمفككة – تتكون من مجموعة من الأجزاء:

1. العرض: ويمثل بداية الرواية , والغرض منه التمهيد للإفصاح عن العناصر الرئيسة المشاركة في الرواية.

2– الحدث الصاعد: ويمثل بداية الأزمة التي يفتعلها الراوي بين شخصيات الرواية وأحداثها الجارية مطوراً بذلك أحداثها ببطء.

2. الذروة: وتمثل نقطة تأزم الأحداث , حيث تصل فيها العقدة إلى أعلى درجات التكثيف والتوتر.
3. الحدث النازل: وهي الأحداث التي تلي الذروة حين يبدأ التوتر بالفتور تمهيداً للحل.[2052]

---

(11) م. ن 208.

(12) م.ن 311

(13)ينظر: قراءة النص الأدبي 76

4. الحل أو الخاتمة: ويعرض فيها الراوي النتائج والحلول التي تصل إليها الأحداث , أو عرض الفكرة التي أراد الراوي ان يوصل القارئ إليها من خلال روايته.[15] نلحظ في أحداث رواية زقاق المدق أن الراوي قد استخدم الكثير من الصور الفنية في رسم الأحداث وربطها وسيرها من البداية حتى النهاية مرورا بالذروة , ولا نقصد بالصورة الفنية الصورة التشبيهية أو الاستعارية أوالكنائية وحدها , بل للكلمة المفردة دور آخر لا يقل شأناً في صناعة الصورة , بما تحمله من إيحاء وجرس وتخييل في ذهن السامع , وقد تأتي الصورة أيضاً بأسلوب الحقيقة لأن التشكيل الصوتي في حالة الحقيقة سواء بجرس الكلمات أم بنغم التركيب له دور كبير في رسم الصورة وإخراجها وخلق المناخ التأثيري لها[16] , فمفهوم الصورة عند المحدثين هو " الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه " [17], وبذلك فأن مقياس الصورة الأدبية هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة على السامع أو القارئ.أذن يمكن القول أن الصور عمل خلاق قادر على نقل الفكرة من جهة , و إظهار العاطفة والشعور من جهة آخرى, والأديب المرهف الحس هو الذي يصهر الموجودات ليعيد بناءها من جديدة متجاوزاً أبعادها الزمانية والمكانية ليخلق لنا صورا لم تكن مألوفة من قبل, وهذه الصور هي سبب خلود النص الأدبي –شعراً ونثراً.[18]وهذا مايلاحظ على هذه الرواية , فالرواية لغوية بامتياز , فاللغة في هذه الرواية مادة حاسمة في تشكيل العالم الروائي ومنحه توهجه الخاص , إذ تستعمل أجناسا أدبية وغير أدبية وأنواعا خطابية , مما يجعل بنية الرواية متعالية أشبه ماتكون بسجاد أصله خيوط كثيرة الألوان يلائم النسج بينها لصناعة لوحة فنية فتعرض الأحداث بأدبية الرواية وشعرية اللغة.

أن رواية زقاق المدق تبدأ بحدث متوقف إذ يبدأ الراوي روايته بوصف الزقاق في حالة الغروب بقوله:" **آذنت الشمس بالمغيب , والتف م.ن في غلالة سمراء من شفق الغروب , زاد من سمرتها عمقاً أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية , ثم يصعد صعودا في غير انتظام , تحف به دكان وقهوة وفرن... ثم ينتهي سريعا... ببيتين متلاصقين , يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة.**" [19] فالراوي هنا رسم لنا صورة جميلة للزقاق في حالة الغروب , فهو يصور الزقاق بهيئة شخص قد آلمه رحيل الشمس , فالتف في غلالة سمراء , كما يلتف وينطوي الإنسان الذي يعيش الوحدة على نفسه حين يفارق صديقه العزيز عليه الذي يؤنس وحشته , والذي زاد من وحدة هذا الزقاق وعزلته أنه سجين بين جدران ثلاثة يصعب بل يستحيل الخلاص منها , فكأنه واقع في مصيدة , فالراوي هنا قد لجأ إلى الاستعارة لعرض الصورة , إذ استعار لفظة (ألتف) من حقلها الحقيقي التي هي للشيء المتحرك , واستعملها للزقاق ,وأيضاً استعار لفظة (سمراء, وسمرتها ,يصعد) وغيرها من الألفاظ التي استعارها الراوي ليضفي على زقاقه صفة التشخيص والتجسيد , وكذلك أستعمل التشبيه في قوله (كالمصيدة) فشبه موقع الزقاق وانعزاله وضيق مساحته بالمصيدة التي يقع فيها الحيوان الزاحف , وهذا تشبيه رائع يوحي للقارئ بالعزلة التي كان يعيشها الزقاق وأهله و بعد أن يصف الراوي الزقاق وأهله في حالة الغروب , يبدأ بسرد أحداث روايته وهو لا يتوانى عن استعمال اللغة المجازية الجميلة لربط هذه الأحداث ونسج شباكها بطريقة بارعة تنم عن خيال خصب للراوي ,إذ يقول:" **نظرت إلى المرآة بعين غير ناقدة , أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا... والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاما...إلا أن باعثاً جديداً دب في أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة** " [20] فيعرض الراوي لقصة ست سنية بطريقة شعرية جميلة , فالصورة هنا جميلة جدا,إذ جعل للعين لسانا تنقد به

(14) ينظر: م.ن 76.

(15) ينظر: في النقد الأدبي الحديث 43

(16) ينظر: التصوير الفني في خطب الأمام علي –عليه السلام- : 58

(17) أصول النقد الأدبي 242.

(18) ينظر: التصوير الفني في خطب الأمام علي –عليه السلام : 57

ويدا تتلمس فيها , فالاستعارات هنا جميلة جدا , فميدان النقد اللسان وميدان اللمس اليد , ولكنه نقل هذان اللفظان من حقل دلالي ثابت إلى حقل دلالي يخدم غايته الأدبية ،وهي رسم صورة ست سنية حين طالعت المرآة , وكذلك قوله: (باعثا جديدا دب...) نجده أيضا يلجأ إلى الاستعارة لنقل الحدث , فاستعار لفظة دب ليصور لنا حال ست سنية حين خطرت على بالها فكرة الزواج , ووصف هذه الفكرة بالدبيب , والدبيب للحيوان الزاحف العديم الأرجل أو الذي تكون أرجله قصيرة جدا [21]

وسمي مشيه دبيب لضعف سيره وبطئه , وقد استعار الراوي هذه اللفظة لينقل لنا فكرة أن الأمل وان كان ضعيفا بالزواج لأنها كانت متقدمة في السن , إلا أنه كان باعثا جديدا لها للعيش والتمتع بالحياة , فنجد " **وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر وثمل فؤادها سرورا** " [22], حين وافقت أم حميدة على البحث عن زوج لها.وهنا الراوي صور لنا ردة فعلها بصورة فنية أيضاً ف(تورد) تشبيه بليغ لأن الورود تبعث الفرح والسرور في الربيع , فكأن الخبر قد بعث الحياة فيها من جديد كما تنبعث الحياة في الورود والزهور في وقت الربيع , (وثمل الفؤاد) كناية عن الفرح والسرور والغبطة , كأن نشوة انتابتها لسماع الخبر تشبه نشوة الشارب للخمر.وبعدها ينتقل الراوي لعرض قصة أخرى هي قصة حميدة , مصوراً لنا من خلال الحوار الذي دار بينها وبين أمها بالتبني الموضوع الرئيس الذي يشغل بالها " **لن يلم الله شعثك برجل ,فأي رجل يرضى بأن يضم إلى صدره جمرة موقدة** " [23], ولكنه عرض المشكلة بصورة رائعة , فالأم تخبر ابنتها أن صرامتها وقوتها المفرطة هي سبب عدم زواجها فهي كالجمرة الموقدة التي لايطيق أحد أن يضمها إليه ،وهذا تشبيه جميل جدا, فالجمرة مهما كان منظرها الأحمر جميلا يجذب الناظر ,إلا أنها قد تتسبب في أذى من يحملها مما يجعل الكل يعرض عنها , وحميدة تشبه الجمرة الموقدة فعل الرغم من أنها كانت فائقة الجمال كالوردة في الربيع إلا أن قوتها وصرامتها وعنفها , يجعل الشباب يعرضون عن أن يتقدموا لها بالزواج , ولكن حميدة لا تعترف بهذا الأمر ولكنها ترد على كلام أمها قائلة " **بل أجد الكثيرين , ولكنك خاطبة فاشلة**" [24] , وهكذا يستمر الصراع.لقد كان يسكن في الزقاق رجل وسيم اسمه عباس الحلو , كان معجباً بحميدة , ويصور لنا الراوي شدة اعجابه بحميدة من خلال وصف حالته عندما ذُكر اسمها أمامه " **فخفق قلب الحلو بعنف...لسماع هذا الاسم المحبوب , وتمثلت لعينيه صورتها , فتورد وجهه ,... ولاذ الحلاق بالصمت , وقد لاح في وجهه الارتباك** " [25], فهذه الصورة تكشف لنا مدى عمق الحب الذي يكنه عباس لحميدة ,إذ استعار الراوي لفظة (عنف) ليصف دقات قلب العاشق حين سمع باسم محبوبته ، ليوحي للقارئ بالسرعة الهائلة والاضطراب الذي اصاب دقات قلبه , وكذلك إشارة إلى أن هذه الدقات غير خاضعة لإرادته ؛ لأن العنف نتيجة الغضب , والغضب شيء لا إرادي , فمجرد سماعه لهذا الاسم فاضت عاطفته , لشدة تعلقه بصاحبة الاسم , فالاسم بحقيقته لا معنى له عنده ما لم يقترن بشخصها , فسافر بخياله إلى ربيع الحب وجنة العشق , فلاذ المحبوب بالصمت ,لأنه شعر أن الكلمات لاتعبر عن محبوبته فهي عاجزة عن رسم صورتها المطبوعة في قلبه , وارتبك عند سماع اسمها لأنه يعلم أن لهذا الاسم سطوة وهيمنة على قلبه , ويبدو ان صفات المحبوبة هذه نابعة مما رسمه المعشوق لها من صور جميلة في خياله ومكانة.كبيرة في قلبه , فليست حميدة في الواقع على هذه الصورة الجميلة.وفي عصر أحد الأيام حين كانت حميدة تخرج لنزهتها , تبعها عباس وتساءلت حميدة " **هل تبعها عمدا ؟ ألم يعد يقنع برسائل الحب ؟** " [26], وهذا السؤال يدل

---

(19) زقاق المدق 5-6

(20) م.ن 18 -19.

(21) ينظر : القاموس المحيط مادة (دب) 59

(22) زقاق المدق 24

(23) م.ن 28

(24) م.ن 29

(25) م.ن 39

على أن حميدة لم تكن تتوقع هذه الخطوة من عباس الحلو على الرغم مما كان بينهما من رسائل يتبادلانها، ويرسلانها عبر نظرات عيونهم.ويصور الراوي شعور الحلو بعد لقائه بحميدة " 2055**2056فكان أبعد الناس عن اليأس بل راح يستسلم لمغازلة الأمل قد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل** "[27] , فاللغة هنا قد خرجت عن وظيفة الاخبار الى الايحاء , فأوحت بالحالة الشعورية والنفسية للعاشق , فالمجاز والاستعارات تتزاوج لرسم ذات العاشق وشعوره , فتثير فينا اللغة متعة وتلذذا ,و كأن القارئ نفسه يعيش لحظات هذا الحب , فاستعمل الكاتب الصورة الاستعارية لرسم اللوحة, فاستعار للأمل المغازلة , واستعار الرحيق للنشوة , ثم شبه هذه النشوة بالسحر , وهو تشبيه بليغ حيث حذف منه الاداة ووجه الشبه.كما صور لنا الراوي مقابلة حميدة للحلو بقوله: " **وقرأت في عينيه البارزتين آي الحب كما قرأتها مرارا من نافذتها في الماضي... فلم تهش للمسالمة , ولم تفرح بظفر هين سهل**"[28] فهنا جعل الراوي (العيون) النافذة التي تعكس وتجعل المقابل يرى ما يدور داخل الشخص , فكأنها رأت كل مايدور في أفكاره و قلبه ما أن أطلت من هذه النافذة – العيون – والراوي هنا لجأ إلى الاستعارة دون التشبيه ,لأنها أبلغ في التعبير من التشبيه , أما قوله: " **فلم تهش للمسالمة , ولم تفرح بظفر هين سهل**", فالراوي اختار هذه الصفات بالذات ليكشف للقارئ عن الصفات الداخلية لبطلته حميدةوفي قوله:" **كانت مقابلة الأزهر فتحا جديدا في حياة عباس.عهد الحب شعلة وهاجة تضطرم في الفؤاد , نشوة سحر تسكر العقل , وشهوة تصهر الأعصاب. وكان مرحا مختالا مزهوا كأنه فارس لايشق له غبار , أو ثمل قد آمن عوادي الخمار , وتقابلا بعد ذلك مرات فلم يملا الحديث عن مستقبلهما** " [29] فنلحظ أن الراوي قد حطم مقاييس اللغة المعيارية , واستعملها للتعبير عن الانفعالات والعاطفة التي اعترت قلب العاشق فكان هنا في غاية الابداع , فاختار الفاظه بعناية وحملها طاقة انفعالية موحية , تنقل للقارئ بصدق ودقة عاطفة العاشق وانفعالاته , فلا يكاد المجاز يغادر لفظة من الفاظ هذا النص (فمقابلة الأزهر) كناية عما أصبح هذا المكان يعنيه بالنسبة للحلو , وقوله: " عهد الحب شعلة وهاجة تضطرم في الفؤاد " , فشبه هنا الحب بالشعلة التي أضاءت فؤاد العاشق , فاستعار الشعلة الوهاجة ليصور ما احدثته مشاعر الحب في قلب العاشق من نور ودفء ,وهكذا نجد الراوي يكيل الصفات للحب وصنائعه , واصفا نشوته بالسحر الذي يسكر العقل وشهوته التي تريح الاعصاب فكأن الاعصاب تنصهر تحت حرارة العشق , ولا يبقى لها وجود. وبعد ان يتقدم لخطبتها , يسافر للعمل من أجل الحصول على المال " **ثم كان... اللقاء الاخير بالأزهر... والحلو يشعر بدموعه تدق أبواب صدره لتجد سبيلا إلى مجاري عينيه** "[30] قائلا لها: " **ساترك قلبي ورائي في الزقاق , تصوري رجلا مهاجرا بلا قلب , رمى به السفر إلى بلد ناء , وأبى أن يسافر قلبه معه** " [31], الراوي قد رسم صورة مبتكرة للدموع , فكأنها كائن حي تفاعل مع الموقف الذي مر به الحلو , فراحت الدموع تعلن مساعدتها فدقت صدره لتجد سبيلا لمساعدته عبر جريانها من عينيه.أما قوله (سأترك قلبي) , كناية عن الحبيبة ,لأن موضع ولادة الحب وموطنه الاصلي هو القلب , ففراق الحبيبة , كأنه فراق للقلب , وهذه كناية رائعة , فكما لا يمكن ان يعيش الإنسان بلا قلب , فالحلو لا يعيش الحياة بعدها ,فكأن دقات قلبه قد توقفت بفراقها ,أي أنه غير موجود أصلا.أن القارئ لهذه الرواية سيجد أن الراوي دائما يصور مشاعر واحاسيس الحلو بهذا الحب ويعكس ما يدور في قلبه , وما يحركه الحب في فؤاده من لوعة وفرح وحزن وسرور تصويرا دقيقاً, في حين لا نجد الراوي يصور لنا مشاعر الحبيبة اتجاه هذا الحب ,وكأنه يعلم أن حميدة لاتبادله الحب ,أو أن مسيرتها ستغير وجهتها بعده ,وأن قلبها سيواجه عاصفة أخرى.وعندما تلتقي حميدة بشخص آخر نرى الكاتب يصف لنا اللقاء بلغة شعرية ذات رقي فني يسمو عن الصور

(26) م.ن 46

(27) م.ن 49

(28) م.ن 49

(29) م.ن 110.

التشبيهية الى الصور الاستعارية " **استوى المنظر الخلاب على لبها , فانجذبت روحها...التمع السرور في عينيها الفاتنتين , ورقص قلبها سرورا , وجرى دمها حارا دافقا** " [32] فنجد الاستعارات تملأ النص , فاستعار (استوى) لينقل لنا شدة الانجذاب فكان قلبها ،وهو موطن الاحساس بالحب والجمال قد غادرها وصار ملكا له , و(ألتمع) للبهجة التي انعكست في عينيها فزادهما جمالا , واما(الرقص) فليصف شدة السرور والفرح ,أما عبارته " جرى دمها حارا دافقا " فتوحي لنا بان الكاتب كان عالما في هندسة الجسد وجماليته , فقد وصفه وصفا دقيقا وجميلا في

ان هذه الصورة قد اوحت بلغة شعرية بالغة الجمال , فهي غزيرة المعنى شديدة الايحاء بألفاظها وحروفها , فالكناية التي عمد الكاتب الى استعمالها ,قد جعلت اللوحة من النماذج الفنية المبتكرة في الابداع والتميز, لأن الصورة الكنائية تولد إقناعا اكبر بالمعنى الذي تشير اليه , فلا ريب ان هذا المشهد سيدفع خيال القارئ على تصور الاوضاع المتردية للزقاق وأهله.[2057]

وتسير الاحداث وتبلغ ذروتها حين يعود الحلو من السفر ويعلم أن حميدة قد هربت , و يبدأ بالبحث عنها في كل مكان , فيعبر الراوي عن حالته من خلال تصويره للمونلوج الداخلي لعباس ," **أي جرأة شيطانية اغرتها بالفرارمعه !... وانفجرت نفسه غضبا** "[34]

وفي احد الايام يلتقي عباس بحميدة ويرسم لنا الراوي ذلك اللقاء بصورة رائعة تنسي القارئ واقعه وتأسره بين سطور النص:" **رأى حميدة في جلسة شاذه بين نفر من الجنود , كانت تجلس على كرسي والى ورائها جندي واقفا يسقيها خمرا من كأس بيده ينحني عليها قليلا وتميل هي برأسها إليه, وقد مدت ساقها على حجر اخر يجلس قبالتها , وحف بها آخرون يشربون ويعربدون** " [35]

فالكاتب هنا رسم لنا صورة واقعية ناقلا أدق التفاصيل , فلو عرضت هذه الالفاظ والعبارات على رسام لوحات محترف لرسمها لوحة كاملة بما فيها من دقة تصوير وبراعة في التعبير , فكأن الكاتب كان واقفا معهم في ذلك الوقت , ولكن الكاتب على الرغم من الواقعية الجميلة التي رسم بها الصورة , نجده قد هرع الى المجاز سريعا ليكمل لنا رسم الصورة , وذلك حين وصف شعور الحلو بهذا المنظر قائلا:" **وبهت الفتى وتسمر في موقفه...وطمس الدم الفائر بصيرته...وصاح بصوت كالرعد** " [36] ان الكاتب قد استعمل المجاز لرسم كل ردة فعله إزاء المنظر , فقد شبه بالمسمار الثابت ليصف لنا شدة ذهوله بالمنظر, ومن شدة غضبه كأن دمه بركان قد أنفجر، وطمس بصيرته وحكمته التي كان يتصف بها , وشبه صوته بزئير الاسد , فهذه الصور جميعا حاكها الكاتب ليصور لنا شدة غضبه.وكما بدأ الكاتب سرد قصة بصورة تجذب القارئ فقد ختمها بصورة لا تقل جمالا عن الصور الاخرى:"**لمح الى يساره زجاجات الجعة الفارغة... فتناول واحدة... وقذفها صوبها...فأصابت الزجاجة وجهها , وتفجر الدم.. واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين , وانقض عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر , وتطايرت الكلمات والركلات والزجاجات** " [37] 2058

الكاتب هنا قد استعمل العديد من الاساليب البلاغية لرسم نهاية قصة عباس وحميدة ,فاستعمل الايجاز إذ نجده قد عبر عن معان كثيرة في كلمات قليلة , وكذلك استعمل التشبيه حين شبه اصوات السكارى بصوت (زئير) الاسود ,وشبه الغاضبون

(30) م.ن 112
(31) م.ن 113
(32) م.ن 166
(34) م.ن 206-257.
(35) م.ن 306
(36) م.ن 306 -357
(37) م.ن 307

بالوحوش الضارية , واستعار التفجير ليصف سرعة جريان الدم ,واستعار تطايرت ليصف الفوضى العارمة التي ملأت المكان ثم يترك الكاتب القارئ محتارا متسائلا مالذي حصل بعد ذلك , عندما قطع سرد الاحداث عند هذه الصورة , ويبدأ فصلا جديدا يصف فيه يوما جديدا من ايام الزقاق , " **أضاء الصباح بجنبات الزقاق... غدا سنقر صبي القهوة فملأ دلوا ورش الأرض...ينشط العم كامل... فيقف امام صينية البسبوسة**" [38], وبعد عرض هذه الصور يخبر القارئ ما حصل لعباس الحلو على لسان صديقه حسين كرشة "**قتل عباس الحلو** " [39], وهكذا تنتهي الرواية بموت عباس الحلو ودخول حميدة للمستشفى.وفي الرواية خطوط اخرى متوازية مع خطها الرئيس , فغير قصة حميدة وعباس الحلو نجد قصة المعلم كرشة , صاحب القهوة التي طالما أضاءت ليالي الزقاق الحالكة وآنست وحدته ووصفه الراوي بأنه " **عاش عمرا في أحضان الحياة الشاذة حتى خال أنها الطبيعة** " [40]هذه الصورة التي رسمها الراوي تصور لنا مدى الانحراف الذي كان وما زال يعيشه المعلم كرشة , وجعل الراوي للحياة الشاذة حضنا كأحضان الأم لينقل للقارئ مدى انغماسه في الملذات ,وغوصه في بحر الرذائل.أما قوله: "**خال أنها الطبيعة** " [41]

فهو يذكرنا بقول الإمام علي – عليه السلام–:" لما سكت أهل الحق عن الباطل , ظن أهل الباطل أنهم على حق " وهكذا أخذ المعلم كرشة يمارس فضائحه " **تحت جنح الليل**" [42] وهنا صور لنا الليل بهيئة الطير الذي كان يضم تحت جناحه ما كان يفعله المعلم كرشة.

ونظرا لتهتكه كان يقيم علاقة شاذة مع صبي جميل , ونتيجة لهذا تقع العديد من الصراعات بينه وبين زوجته , وكانت تسأله عن هذا الشاب قائلة: " **هل هذا الشاب المتهتك من بين هؤلاء المخبرين الذي أطاروك من عشك** ". [43]

فخرج بعد صراع طويل من البيت " **وأغلق الباب بعنف فرنت صفقته رنينا مدويا مزق سكون الليل...وأم حسين... امتلأت نفسها رغبة في الانتقام** " [44]

فالراوي هنا صور الصراع عن طريق المزاوجة بين الحقيقة والخيال , فالشاب المتهتك وصف حقيقي , في حين قولها: "أطاروك من عشك " تشبيه بليغ ,إذ لا أثر لوجه الشبه وأداة التشبيه في العبارة , وهذا تشبيه جميل فهو يصور الرجل بالطائر الذي يعكف على عشه بل لقرب التشبيه , فكأنه هو الطائر نفسه الذي هجر العش وطار إلى عش أخر ,وهذه صورة رائعة تعطي للقارئ الكثير من الإيحاءات , فهي تشبه بيت الزوجية بعش الطائر الذي يأوي إليه و يأمن به , ويرعاه باستمرار, وهذا ما نراه فعلا فالطائر دائم البحث عن القش الذي يصلح به عشه ويزيده قوة ومتانته , كي يأوي عائلته ,أما إذا فارق الطير العش , يصبح مهجورا وتمتد إليه يد الظروف المناخية بالتدمير, وهذا التشبيه يوحي لنا ما تعاني منه زوجته وأولاده بسبب هجر الزوج وسلوكه المتهتك فالصورة رائعة ومؤثرة.ونجد الشعرية كذلك في قول رضوان للمعلم كرشة حين شكت له زوجة المعلم كرشة حالها: "**أن الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة , فيلجها خفية وعلانية ويعيث فسادا , ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشاب مفتح الأبواب , ونلزمه أن يغلق , أبوابه في وجه الشيطان , فماذا يكون الحال مع الشيخ الذين وهبه العمر مفاتيح العصمة** " [45]

---

(38) م.ن 308

(39) م.ن 309

(40) م.ن 50

(41) م.ن 50

(42) م.ن 50

(43) م.ن 83

(44) م.ن 85

(45) م.ن 10

أن هذه الموعظة التي ذكرها الراوي قد اتصفت بالعمومية , فكأن الراوي أراد منها أن تكون نصيحة لكل قراء هذا المقطع من روايته , فيقف أمامها متفكرا ومتأملا فهي نصيحة للشاب بأن يغلق بابه أمام الشيطان , ودافع للشيخ الكبير بأن يفكر بحياته ويقلع عما يرتكبه ,لأن العمر الذي عاشه قد اعطاه مفتاحا يغلق هذا الباب نهائياً , ويعصمه من فتحه , فهذه العبارات مليئة بالإيحاءات والاستعارات , فلا يكاد المجاز يغادر كل لفظة من الفاظه.ولاتنتهي قصته مع هذا الشاب إلا بعد ان يقع صراع كبير بين زوجته والشاب , فيهرب الفتى من الزقاق , ويرسم لنا الكاتب هربه بصورة بديعية رائعة:" **فتطاير خارج القهوة** " [46], فنجده قد استعار تطاير ليصف سرعته في الهروب بأنه كالدخان سرعان ما اختفى من الزقاق.

- **إيقاع الأحداث في رواية زقاق المدق**

الايقاع في اللغة من " وقع , سقط...الوقع وقعة الضرب بالشيء , والوقعة في الحرب صدمة بعد صدمة , والواقعة النازلة الشديدة, الايقاع ايقاع الحان الغناء , وهو ان يوقع الالحان ويبنيها " [47]والايقاع سابق للغناء و الموسيقى و الشعر و الرقص، لأنه مستوحى من الطبيعة و من حركة الإنسان و الحيوان. و الإيقاع في الشعر خاصية جوهرية فيه وليس مفروضا عليه من الخارج و هو تنظيم لأصوات اللغة بحيث تتوالى في نمط زمني محدد، وهو ما يتمثل بالوزن والقافية. [48]أما الايقاع الروائي فهو مصطلح حديث النشأة , وهو نتيجة للتطور الذي اصاب مصطلح الايقاع ,دأبه في ذلك دأب الاشياء الاخرى في دوام التطور والتجدد. والايقاع الروائي يضبط ويشكل ويجسد البنى الروائية المختلفة في ترتيبها وهندستها وتواصلاتها الظاهرة والخفية , كما أنه يرسم ويرصد بدقة الانسجام وعمليات التنسيق والتحرك والترتيب والتصادم في الاحداث والمفاهيم والأزمنة والأمكنة والعواطف والشخصيات والعقد والحل... الخ. [49]

فالايقاع يضع الرواية امام امتحان صعب , فنجاحها مقترن بتميز ايقاعها وانسجامه , لأن الرواية إذا لم ينظمها الايقاع تصبح وثيقة من نوع ما.ولكل رواية ايقاع خاص بها يميزها عن غيرها من الروايات والقصص، بل عن الانماط الادبية جميعها ,فهو يعطيها خصوصية , وذلك لأن ايقاع رواية ما , يصعب بل يستحيل تطابقه مع ايقاع رواية اخرى , لاستحالة التشابه التام مابين الأمكنة والازمنه والأشخاص والأحداث...الخ. تبدأ الاحداث في رواية زقاق المدق بإيقاع متعطل متوقف ,إذ يبدأ الراوي بوصف الزقاق ومكانته في العصور الغابرة ,إذ إن " **م.ن كان من تحف العهود الغابرة وأنه تألق يوما...كالكوكب الدري... طريقه المبلط بصفائح الحجارة...والقهوة المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك... وروائح قوية من طب الزمان القديم** ".[50]ثم يبدأ ايقاع الأحداث يسير ببطء حين يبدأ بوصف الزقاق في حالة الغروب,إذ يشير الغروب إلى العزلة والتأخر الثقافي والاقتصادي الذي كان يعيشه الزقاق وأهله , لينطلق منه لسرد أحداث الرواية , ويبدأ الإيقاع بالصعود حين تزور الست سنية أم حميدة في بيتها. فتظنها جاءت لرفع الايجار " **وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الايجار** " [51], ولكن الايقاع يهبط حين تعلم ان الست سنية قد جاءت للبحث عن زوج فيمثل ذلك انفراجا لشدتها "**فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنت رنينا مزعجا وازدادت اطمئنانا**"[52]وتتصاعد احداث الرواية حين يقع صراعا بين حميدة ووالدتها بالتبني , حين تطلب منها الزواج , ولكن حميدة ترفض ذلك لأنها ترى بأنها جميلة و لا أحد يستحق ان يقتطفها " **أفي هذا الزقاق أحد يستحق العناء** " [53], فتقول لها " **لا تسلقي الزقاق بلسانك أن أهله سادة الدنيا** ",[54] وهكذا يستمر الصراع على هذه الوتيرة مدة من الزمن.ثم يهبط ايقاع الرواية إلى الانفراج حين يتقدم لطلب يدها عباس الحلو , ويتحقق طلبها ويترك الزقاق لجمع الاموال ف"**شعرت بسرور ولذة ودخلها زهو نزوعها الى القوة والسيطرة...وكلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب الاذن ولو لم ترجع القلوب انغامها**"[55].

(50) زقاق المدق 5

(51) م.ن 21

(52) م.ن 26

(53) م.ن 29

ولكن الايقاع يتصاعد ويشتد حين يسافر عباس الحلو , ويتقدم لها سليم علوان الذي يمثل لحميدة تذكرة السفر الى عالم الثراء والترف والسلطة والقوة. ولكن ايقاع الاحداث يهبط حين توافق حميدة على الزواج من السيد علوان , فقد مثل هذا الطلب انفراجا لشدة البطلة في البحث عن طريقة للخلاص من فقر الزقاق وحياته البائسة " **فأضاء وجه الفتاة نورا...وتورد وجهها... وتألقت عيناها بشرا وسرورا , هذه هي الثروة التي تحلم بها** " [56]ولكن سرعان ما يتصاعد الايقاع الى الشدة حين ينقل سليم علوان الى المشفى على اثر اصابته بنوبة قلبية , فتشعر حميدة بأن هناك عدواة لا تنتهي بينها وبين حياة الزقاق.ثم يبدأ الايقاع بالهبوط ,حين يأتي للزقاق فرج إبراهيم ويبدأ بملاحقة حميدة , فترى فيه فارس احلامها , فهو شاب وسيم ومثقف وغني , وأهم صفاته التي شُدت اليها حميدة أنه كان ليس من أهل الزقاق.

ويستمر ايقاع الاحداث بالانفراج مدة من الزمن , فمرة يجلس أمام النافذة ناظرا الى وجهها طوال اليوم , ومرة ثانية يلاحقها حين تخرج من بيتها ,ومرة ثالثة يمسك يدها , وأخرى يهمس في أذنها كلمات حب جميلة , وهكذا نجد ايقاع الاحداث في قمة الانفراج.و يشتد الايقاع حين يعرض فرج على حميدة ان تعيش معه من دون ان يتزوجها , فتعلم انه قواد , وهولا ينكر ذلك بل يؤكد ظنونها بالقول "**أليس القواد برجل ؟!... القواد فهو سمسار السعادة في هذه الدنيا** " [57] ,ثم يهبط الايقاع حين تعمل حميدة مع فرج للخلاص من الفقر والحصول على الحبيب , فتعيش بنعيم الحب , ورخاء الثروة مدة من الزمن.

ولكن سرعان ما تتصاعد الاحداث وتبلغ ذروتها حين يعود عباس الحلو من السفر، ويعلم باختفاء حميدة فيبحث عنها في كل مكان ,ويشتد أكثر حين تخبره صديقاتها بانها قد هربت مع شاب وسيم.ويقابل عباس حميدة فجأة , وتخبره بأنها اصبحت امرأة لعوب عاهرة , وفي يوم يراها في احدى الحانات يحيط بها مجموعة من الجنود السكارى , فيضربها بزجاجة فارغة , وينقض عليه الجنود ولا يتركوه حتى يصبح جثة هامة.وهكذا نجد ان ايقاع الاحداث قد استمر بالصعود الى الشدة حتى انتهى بموت بطل الرواية.

وهناك ايقاع اخر استعمله الكاتب , ليزين روايته , ويزيدها جمالا ,وهو الايقاع المتولد من جرس الكلمات الداخلة في تكوين النص , والتراكيب التي قصدها الكاتب لزيادة الايحاء والدلالة وجذب القارئ , من جناس وسجع وطباق وتكرار وغيرها ،مما زاد من شعرية الرواية , وان توفر هذا النوع من الايقاع والجرس في الرواية جعلها من الروايات الناجحة في شعريتها ؛ وذلك لأنها استعارت كل شيء من الشعر حتى الجرس والنغم والإيقاع.ففي قوله: " **فضحك عباس الحلو ضحكة عالية** " [58], نلحظ أن تكرار كلمة (ضحك , ضحكة) قد خلق تنغيما إيقاعيا جميلا , ساعد في التعبير عن الحماس والفرح الذين تملكا قلبه , فكأن هذه الضحكة ترجمة لخلجات قلبه ,ويبدو ان الايقاع شديد التلاؤم مع الهياج النفسي والعاطفي الذي كان في قلب الحلو , ومما زاد هذا الايقاع شدة وتنغيما , ختم التكرار بكلمة (عالية) بما تحمله من دلالة معجمية.وكذلك نجد الايقاع في قوله: " **ولمع انبساط وجهها , فلم يعبأ بضجرها** " [59], نجد السجع في هاتين العبارتين (وجهها , بضجرها) تمثل الاداة الموسيقية التي لجأ اليها الكاتب لخلق الموسيقى , فكانت موسيقى عالية النغمة بارزة الايقاع , والذي ساعد على تكثيف الصوت وايضاح الصورة , وزاد من جمال الايقاع , التوازن الذي وقع بين الفقرتين.واستعمل الكاتب الايقاع ايضا في تصوير استقبال ام حميدة للحلو حين جاء يتقدم لابنتها:" **أهلا بالحلو الذي هو حلو** " [60], فالايقاع هنا هادئ وجميل وملائم للمناسبة ,كما استعمل الكاتب الجناس لخلق هذا الايقاع , فالترديد الصوتي في كلمة (الحلو) , يجذب القارئ ويفاجئه , ف (حلو) الاولى اسمه , والثانية صفة له ؛ إذ ارادت بها جمال خلقه وخلقه.

---

(54) م.ن 30

(55) م.ن:**5**

(56) م.ن : **21**

(57) م.ن :26

❖ **الانزياح** في سرد الاحداث

جاء في لسان العرب" نزح الشيء ينزح نزحا ونزوحا: بعد... وفي حديث سطيح:عبد المسيحء جاء من بلد نزيح أي بعيد بمعنى فعيل "

والانزياح على مستوى الألفاظ، فهو من باب وضع لفظ مكان لفظ آخر، وهذا الأمر شائع، ويتجلى هذا خاصة في التضمين النحوي، وأسلوب الالتفات، و أهمية الانزياح لدى الباحث تكمن فيما يحدثه من الدهشة والمفاجأة، نتيجة خروج التعبير عن المألوف في التركيب والصياغة والصورة واللغة , وكأن الانزياح إنما يكتسب أهميته من العلاقات الجديدة التي يقيمها التعبير بين العناصر اللغوية المختلفة ، حتى يستثير الدهشة ، أو لذة فنية تغمر نفس القارئ بفيض من الأنس والسرور, فالانزياح هو مخالفة الشائع والمتداول والمفهوم ,أي انحراف عما تواضع عليه الناس واصطلحوا على استعماله في لغتهم العادية، ، أو بمعنى آخر هو خصوصية لغة الفن ، ويتحقق الانزياح في اللغة بطرق عدة منها تراسل الحواس , والانقطاع الخطابي ,والتقديم والتاخير.[62]2063ونجد الراوي قد لجأ إلى الانزياحات في تصوير ونقل الكثير من المعاني , وهذا يدل على تمكنه من لغته , ومعرفته بأسرارها , ومكامن جمالها , ففي قوله: **(الاوراق خرساء)** [63], فهنا حصل انزياح دلالي ,لأن الروابط المعجمية بين اللفظتين متنافرة , فالأوراق جماد , والكلام للكائن الحي , للإنسان بالخصوص.وفي قوله:**(فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان)** [64] فهنا حصل انزياح دلالي ,إذ حصل تراسل بين حاستي اللسان والعين , إذ جعل الة النطق هي العين وليس اللسان , وهذا خرق لقوانين المعنى في العربية.واستعمل الانزياح ايضا حين وصف مشاعر المحب – عباس- **(وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة)** [65], فالانزياح هنا انزياح دلالي في الجملة , إذ لايوجد رابط معنوي بين الالفاظ , فنحن أمام صف من الكلمات لا يربط بينها سوى روابط تركيبية (نحوية) , فالسكر هو غياب العقل. ولا علاقة له بالقلب , والرحيق هو غذاء النحل , ولا علاقة له بالنشوة...الخ.وحصل في قوله: " **إن الموظف فاكهة محرمة على الزقاق** " [66],

انزياح دلالي إذ لا توجد بالاصل فاكهة محرمة ,وليس هناك رابط معنوي بين الموظف والفاكهة.ونلحظ في قوله: **ضحكة عصبية** [67], فهناك حرج يحيط بالعبارة , يصعب على القارئ فهمها فيقف أمامها محتارا في تأويلها , فالضحك والعصبية ضدان ولا يمكن ان يجتمعا في جملة واحدة , فعلاقة الصفة بالموصوف غير تقويمية , وحصل كل هذا بسبب الانزياح الدلالي.**وكذلك نلمح في ابتسامة لؤ لؤية** [68]الابتسامة عديمة اللون , فحصل هنا تجاوبا بين الحواس. فحصل انزياح في العبارة وهو انزياح اضاف على المعنى الكثير من المظاهر الجمالية.ومثالها ايضا **ضحكة قصيرة** [69], تمثل هذه الجملة انزياحا لغويا , فالجملة غير معقولة , وجاءت قوية جديدة انطلقت من قيود القانون اللغوي من دون ان تقدم برهانا للانفلات , فالطول وحدة قياس للأشياء المادية , والضحكة شيء معنوي لا يصح له القياس.وفي قوله: **(انبعث من عينيها نور مخيف)** [70], حصل هنا انزياح نحوي عن طريق التقديم والتاخير , إذ تقدم الجار والمجرور (من عينيها) على (نور مخيف) , وقد أدى هذا التقديم والتاخير الى التخصيص والحصر، والعناية برسم الصورة بدقة , إي ان ردة فعلها قد انعكست مباشرة من عينيها , وهذا يدل على شدة الخبر.وهكذا نجد الكاتب قد نجح في تصوير الاحداث في هذه الرواية , فعلى الرغم من واقعية الرواية , إلا إنه استطاع أن يستخدم زخما كبيرا من الاساليب الشعرية في عرض الاحداث.

---

(62) م.ن 211

(63) م.ن **86**

(64) م.ن **112**

(65) لسان العرب مادة (نزح)13-14 :232

(66) ينظر: بنية اللغة الشعرية 112 -114

وفي قوله:" **أفكارها الوردية** " [71] استعمل التراسل بين الحواس , فالألوان تدركها حاسة البصر , والافكار شيء معنوي عديم اللون ,فهنا الكاتب قد استعمل الانزياح الدلالي لوصف التفائل. وهكذا نجد الانزياح قد زاد من شعرية الرواية , وزادها تأثيرا وجمالا , وأن كانت من الناحية اللغوية تعد خرقا لقوانين اللغة.

المبحث الثاني

❖ شعرية الشخصيات في رواية زقاق المدق

الشخصية من الركائز الأساسية للرواية للكشف عن القوى التي تحرك الواقع من حولنا , وعن ديناميكية الحياة وتفاعلاتها , فمن دونها لا وجود للرواية , لذلك فقد ظهر الاهتمام بالشخصية منذ عهد أرسطو إذ نراه يعلق أهمية كبيرة على الفاعل , ويعده ظلا للأحداث التي تقوم عليها الرواية , فبعد أن ينتهي المؤلف من بناء الأحداث , يعمد إلى اختيار الشخصيات التي تناسب تلك الأحداث والأدوار[72] و يمكن القول أن الشخصية " كيانات كتابية ينشؤها المؤلف من خياله ,و يحركها على الورق بحسب ما يتطلبه العمل الفني ".[73] ويرى فيليب هامون أن الشخصية أشمل من كونها شخصية إنسانية , فقد تكون مجردة كالعقل والمادة , وقد تكون مجازية كالحب والكراهية , وقد تكون اجتماعية كالفارس والعامل , وقد تكون رمزية كالحيوان – كليلة ودمنة – والمكان وغيرها , ويذكر هامون أن هناك شخصيات استذكارية التي يكون دورها شحذ الذاكرة للقارئ مثل الحلم والتمني والاعتراف والتكهن , ويرى هامون أن هذه الفئات أو الأنواع قد تتداخل فيما بينها في وقت واحد [74] ويشترط في بناء الشخصية الروائية رسم ملامح دقيقة لها كالبعد الجسمي (الجسد والهيئة والملامح، الخ), والبعد الاجتماعي (الطبقة الاجتماعية التي ينتمي لها الريف أوالمدينة) , والبعد الايدلوجي (كالعقيدة التي يؤمن بها) , والبعد النفسي (وهو الصراع الايدلوجي الذي يجري داخل الشخصية).[75]

شعرية الشخصيات الرئيسة

- **شخصية حميدة**

اختار الكاتب لبطلته اسم حميدة الذي يعني الرضا , و كثرة الخصال المحمودة , هو اسم من اسماء الله , واسم من اسماء الحبيب محمد (ص) احمد ومحمود , والحميدة من النساء , غاية ما يحمد منهن ,[76]

ولكن مما يلاحظ أن هنالك تناقضا كبيرا بين الاسم والشخصية , فحميدة –البطلة– ذات قوة وصرامة لا عهد للنساء بها , متوحشة , و حريصة على فتنة الرجال , و متلهفة إلى التمرد والعراك , وهذا كله قد خلق ايقاعا وشعرية جميلة ارتبطت بالشخصية , فحين تقرأ الرواية وتعرف أن اسم بطلتها حميدة , تتصورها بصور جميلة , ولكن ما أن تبدأ بالتعرف على أفعال هذه الشخصية حتى تذهل وتفاجئ بالتناقض التام بين الشخصية واسمها , وقد نجح الكاتب بالفعل في خرق افق توقع القارئ وإدهاشه.

---

(67) م.ن **36**
(68) م.ن **49**
(69) م.ن **127**
(70) م.ن **128**
(71) زقاق المدق 22
(72) م.ن **116**
(73) م.ن **209**
(74) م.ن **210**
(75) م.ن **131**
(76) ينظر: الشخصية في قصص الامثال العربية 56

" **الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتي الفتاة... عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف ,...نظرة حادة صارمة , كانت في العشرين , متوسطة القامة , رشيقة القوام , نحاسية البشرة يميل وجهها للطول في نقاء وصفاء** " [77] نجد الكاتب هنا حتى في الوصف الواقعي للشخصية قد عمد على استعمال اللغة الشعرية , فنجده قد اقحم الكثير من الاساليب البلاغية بين الالفاظ الحقيقية التي استعملها في الوصف لرسم الشخصية , فقد استعار الفاحم لوصف شدة سواد شعرها ,و النحاسية لوصف لون بشرتها , لينقل للقارئ جمال لون وجهها فكأنه نحاس يلمع يجذب الرائي لها , وهكذا نجده يتتبع وصف الشخصية ,من حيث جمالها ورشاقتها وسحر عينيها , مزاوجا بين اللغة العادية واللغة الشعرية في الوصف.

ويضيف الكاتب " فغلبتها روح المجون " [78] وعلى الرغم من جمال هذه الصورة الشعرية التي استعملها ليصف ميل حميدة إلى الشذوذ والتعنت., غير أننا نجد أن الصورة خالية من التعقيد والرموز التي يعسر على القارئ فهمها , فهنا الراوي ينقل لنا صراعا حدث بين حميدة ونفسها الامارة في السوء ,التي كنى عنها الراوي ب(روح المجون) , وأن الصراع قد أنتهى بالغلبة لهذه الروح والنزعة الماجنة , ولكن الراوي لم ينقل لنا الصراع كاملا بل نقل لنا نتيجة الصراع فقط , وكان هذا روعة في البلاغة , وآية في التعبير .لقد كانت حميدة " **مشغولة أبداً بالموازنة والاختيار والتفكير , فلم تنجذب إلى الدنيا السحرية التي يهيم في سماواتها** " [79]

هنا عرض الكاتب جانبا من شخصية حميدة , فقد كانت مشغولة عن الحب بالأمور المادية ,فهي تميل إلى ترجيح العقل على العاطفة , ثم يصف الكاتب الحب بأنه دنيا متكاملة , وليست أي دنيا بل دنيا سحرية جميلة , وأن كل شيء فيها خيالي , والمحب يستطيع أن يطير ويحلق في سمائها , فنجد الراوي قد رسم لنا الحب بصورة لم نرها من قبل , بلغة شعرية رفيعة وجميلة , تملأ القارئ اعجابا وشغفا بما فيها من المعاني الرقيقة والصور المبتكرة.وفي قوله: " **تلف الملاءة لفة تشي بحسن قوامها الرشيق , ويصور عجيزتها الملمومة احسن تصوير , وتبرز ثدييها الكاعبين ,وتكشف عن نصف ساقيها المدملجتين** " [80] نجده خبيرا في هندسة الجسم وهيكله ,فهو يتتبع بوصف دقيق قوامها وعجيزتها وثدييها وساقيها , فلم يترك شيئا إلا وصفه كأنه حقا خبير بهذا الجسد, فلو عرضت ألفاظه الدقيقة ولغته الجميلة على راسم لوحات لرسمها وكأنه رآها بملء عينيه.

ثم يصف الراوي حميدة بعد أن غرق فؤادها بالحب –حب إبراهيم فرج– " **تورد وجهها...قلبها يتحدث... قلبها المستعر حماسا وعاطفة** " [81],يذكر الراوي تورد وجهها , ولم يقل أنه احمر ,لأن الاحمرار علامة على الخجل , ولأن الشخصية التي رسمها الكاتب لبطلته كانت جريئة , وقد عدل عن استعمال الاحمر إلى اللون الوردي (تورد) , ليصف قسمات وجهها حين تسمع حبيبها يتحدث , واستعار لحديثها (قلبها التحدث) ليصور لنا الالتحام التام والكامل الذي حصل بينها وبين حبيبها –على الاقل من جانب حميدة–. واستعمل القلب لأن المرأة عندما تعشق , تعيش كأنها قلب يمشي على الارض وليس جسدا, إذ تصبح كتلة من العاطفة و الحنان. –لقد "**ابتلعتها أفكارها فغابت عن الدنيا** "[82] نجد الكاتب هنا يستعمل المحسوسات لرسم المعاني الذهنية لكي تتضح الصورة , وهذا يدل على تمكنه من لغته , وأنها طيعة لينة يشكلها كيفما أراد , ويركب منها الصور التي يريدها , فنجده قد استعار (ابتلعتها) وهو شيء مادي ليصف لنا شيئاً معنويا وهي الافكار , ليصور لنا سطوة هذه الافكار وشدتها على بطلته , فكأنها قد ابتلعت وغاصت في جوفها , وغابت عن الدنيا , وهنا كناية عن الغياب الذهني وليس الجسمي , لأن الغياب عن الدنيا يعني الموت , ولكن الكاتب لم

(77) في النقد الادبي الحديث 44

(78) ينظر: سيمولوجية الشخصيات الروائية 25–26 ,و ينظر الشخصية في قصص الامثال العربية 72

(79) ينظر: قراءة النص الادبي 77, وينظر في النقد الادبي الحديث 44.

يرد هذا المعنى لوجود قرينة مانعة من إرادته , وهي الافكار .وهكذا يستمر الراوي بوصف حميدة بعد الحب الذي غزى قلبها فيقول:"**ما أزهدها في الحب الناعم أو الحبيب الخرع...قلبها مشحون بالآمال والرغبات** " [83]

بدأ الكاتب عبارته بصيغة تعجب من لفظة زهد (ما أزهدها) ,ليعظم لنا الصورة , فهي في قمة الزهد, وهذه من معجزات الحب , فهذه المرأة الصارمة الشاذة المتمردة تصبح زاهدة في قمة التواضع , فهذا تحول عجيب في شخصية البطلة , ولهذا نجد الكاتب عمد إلى استعمال لفظة الزهد من دون غيرها وجعلها ليوحي للقارئ بجميع هذه المعاني , وهذا ينم عن الذكاء اللغوي للكاتب , وعدوله عن استعمال مملوء إلى مشحون " **مشحون بالآمال والرغبات** " ليصف لنا بأنها وصلت إلى الدرجة القصوى والغاية العظمى وهذه من اللوحات الابداعية الرائعة.من خلال ما تقدم يتضح لنا أن حميدة من الشخصيات النامية في الرواية, فهي لم تتخذ وتيرة واحدة , ولم تكن نمطية على طول الرواية بل نجدها متغيرة ومتجددة , تفاجئ القارئ دائما بسلوكها وتصوراتها , فمرة تحب عباس وآخرى تبغضه , وهكذا نجدها قد نمت وتطورت واصابها تحول عجيب في شخصيتها ولم يقتصر التغير الذي اصابها على شخصيتها فقط بل هناك تحول جذري في هيئتها ايضا فمن" **تفاهة ثيابها...فستان من الدمور , ملاءة قديمة باهتة , شبشب رق نعلاه** " [84] إلى " **على الراس عمامة بيضاء مرتفعة في تقوس كالخوذة , الخدان والشفتان مدهونتان بالحمرة... سلسلتان من البلاتين ذات نبقتين من اللؤلؤ تتدليان من الاذنين ,...ساعة ذهبية في معصمها...فستان ابيض شفاف...تنضح حاشيته بسمرة فخذيها , جورب رمادي من الحرير** " [85], وبعد أن كانت " **شعرها الاسود تفوح منه رائحة الكيروسين...قمل** "[86] اصبح " **شعرها المدهون بالعبق...تطاير شذا عبق من تحت ابطيها** " [87].

- **الإيقاع في شخصية حميدة**

وعلى الرغم من تداخل الشخصيات وتوحدها احيانا في الأحداث إلا أن الكاتب جعل لكل شخصية ايقاع خاص بها , يختلف عن ايقاع غيرها من الشخصيات , فإيقاع حميدة مثلا يبدأ بشدة , حين تضيق بالمكان وأهله والفقر الذي كانت تعاني منه ,إذ نراها تقول:" **ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة ؟! ألا ترين أن الفتاة التي لاتجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية** " [88] فهنا الايقاع كان في غاية الشدة , فهي تفضل الموت على العيش في فقر وبؤس.

ثم يهبط الايقاع إلى انفراج حين يصارحها الحلو بحبه لها ويتقدم لخطبتها فتعيش في دنيا سحرية , وتغرق بأحلام وردية " **وشعرت بسرور ولذة, ودخلها زهو وتملق...والحق أن كلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب الأذاًن , ولو لم ترجع القلوب أنغامها** " [89]ويستمر الايقاع بانفراج لمدة من الزمن ,بل نجده يزداد انفراجا حين يتقدم لها السيد علوان " **وثمل خيلها بأحلام عراض** " [90] لأنه رجل فاحش الثراء "**فهل يتاح لها شفاء وارتواء إلا بالثروة** ".[91]

(80) ينظر: القاموس المحيط مادة (حمد) 246.
(81) زقاق المدق 27-28.
(82) م.ن 30
(83) م.ن 111
(84) م.ن 43
(85) م.ن 199
(86) م.ن 212
(87) م.ن 215

ثم يتصاعد الايقاع ويشتد حين يقع السيد علوان فريسة مرض القلب , فتذهب احلامها هباءً ف"**سقط عليها النبأ كالصاعقة** ".[92] ثم يهبط الايقاع إلى انفراج حين تقع في حب فرج , وهو شاب وسيم وثري " **وشعرت وهي ترقبه ببهجة الانتصار ,... ووشي وجهها ابتسامة...وعرفت قدرا من نفسها على ضوء عينيه , فلم تعد الضالة في متاهة الحياة** ".[93]

وسرعان ما يشتد الايقاع ويتصاعد , حين علمت بأنه قواد ويريدها أن تعمل معه – عاهرة– و"**أنبعث من عينيه نور مخيف , وأصفر غضباً...ولبث صدرها يجيش بالهياج والانفعال** " [94]

ثم يهبط الايقاع وينفرج حين توافق على العمل معه للخلاص من الفقر الذي كانت تعيشه وإذعانا لأوامر الحب , وهكذا تغادر الزقاق , ويستمر الايقاع في الانفراج مدة من الزمن , إذ تتعرف على مدرسة فرج حيث الترف والثراء فأصبحت " **تطيل الوقوف أمام المرآة المصقولة ,أصلها ثابت في الحوض الذهبي , وفرعها سامق في سماء الغرفة**".[95]

ولكن نجد أن الايقاع يتصاعد ويشتد حين " **يقتحم –فرج– عليها الغرفة , بوجه جامد ورزين ,كأنه لم يكن ذاك العاشق الولهان** "[96],وتعلم أنه لم يكن يحبها الا من اجل العمل معه.

ويستمر الايقاع في الصعود حين تقابل عباس الحلو ، ويبلغ ذروته حين يهجم عليها ويضربها بزجاجة جعة فارغة "**ويفيض الدم غزيرا من أنفها وفمها وذقنها** "[97], وتدخل المستشفى على اثرها وهكذا يستمر الايقاع بالصعود والشدة فحتى بعد أن تماثلت للشفاء ,فأن شدتها لاتنتهي فهي لاتستطيع الخلاص من فرج القواد، ولا من والدتها التي تراها الآن كنزا مترعا.

فالإيقاع في قصة حميدة كان ايقاعا دائريا مغلقا فهو يبدأ بشدة وينتهي بشدة , إذ يبدأ بشدة الفقر والحرمان والحياة البائسة , وينتهي بشدة الوحدة والضياع واختفاء الامل بحياة حرة كريمة وحب صادق.وهناك ايقاع اخر في قصة حميدة تولد من علاقة حميدة بالزقاق نفسه , فكأن الزقاق يمثل لها شدة ،و ايقاعا متصاعدا لأنه ارتبط بالفقر والحرمان الذي كانت حميدة تعاني منهما,إذ كانت تسأل نفسها دائماً:" **آه يا خسارتك يا حميدة ! لماذا توجدين في هذا الزقاق؟!** "[98], ولكن الايقاع يهبط وينفرج حين تعيش خارج هذا الزقاق, فعلى الرغم من الجرح الذي اصيبت به حين غادرته , ولكنها كانت تقول

لنفسها:" **ولكن الجريح يعيش وهو ينزف , بل يستطيع أن يتمتع بالحياة عريضة فيها الذهب والسرور والسطوة والعراك** " [99]

ويمكن تمثيل هذا الايقاع على النحو الآتي:

(88) م.ن 43
(89) م.ن 275
(90) م.ن 31
(91) م.ن 90
(92) م.ن 149
(93) م.ن 151
(94) م.ن 175
(95) م.ن 195
(96) م.ن 211
(97) م.ن 247
(98) م.ن 277
(99) م.ن 307

* شخصية عباس الحلو

نلاحظ هنا أن الكاتب جمع بين الضدين في اسم بطله , فعباس هو الاسد الشجاع الذي تهرب منه الاسود , والرجل يسمى عباساً إذا حضر الوغى , فالاسم يدل على الشجاعة المفرطة , وهذا مناقض لسايكلوجية الشخصية , فهو لم يكن يمتلك من الشجاعة القدر الذي يجعله يعلن بحبه لحميدة , أو يغادر الزقاق ويتعرف على الحياة خارجه.[100]اما الشق الثاني من الاسم فقد عبر عن سايكلوجية الشخصية تعبيرا دقيقا , فالحلو هو كل شيء جميل , فالحلو من الاكل الطيب اللذيذ , والحلو من الرجال تام الحلاوة , فالاسم قد أوحى بالجمال الخلقي والأخلاقي للشخصية [101]0

يبدأ الكاتب برسم شخصية عباس رسما دقيقا فيقول:" **شاب متوسط القامة , ميال للبدانة , بيضاوي الوجه , بارز العينين , ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته , يرتدي بدلة , ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الاسطوات... وديع عاقل لايتهور ولا يتورط في خطأ** " [102] على الرغم من أن الصورة واقعية جدا , ودقيقة في استعمال الالفاظ بحسب دلالتها المعجمية , إلا أننا لا نجدها تخلو من الشعرية , فعلى الرغم من واقعيتها ،إلا أنها تجذب القارئ بلغتها العالية وأساليبها وترابطها المحكم وعباراتها القصيرة , فعبرت عن معان كثيرة , فرسمت الصورة ابعاده الجسمية بدقة , وأبعاده النفسية وهيئته , والانتماء الفكري له..الخ.و لم يكتف الكاتب برسم هذه اللوحة لشخصيته , بل رسم حالات متعددة لبطله , فوصف حاله تحت وطأة الحب بقوله:" **عاود قلبه الخفقان العنيف , والتهب وجهه احمرارا , وذابت نفسه وجدا وقلقا وانفعالا** " [103] الكاتب هنا كان مرهف الحس , فقد صهر الموجودات و اعاد بناءها وصياغتها من جديد متجاوزا ابعادها المعجمية , مقيما بينها علاقات ما كنا لنألفها من قبل , فاستعار العنف لوصف دقات القلب , والالتهاب لوصف شدة الخجل الذي أنعكس احمرارا على وجهه ,

والذوبان الذي هو للجمادات , ليصف حال العاشق عند سماع اسم معشوقته , وهكذا نجد اللوحة تفيض احساسا وعاطفة , وقد صورت الحب بأبهى صورة." **كأنه كان يشعله الماء وتطفئه النار** "[104] الصورة متوهجة , فهي صورة تشبيهية لا تقل روعة وجمالا عن الصورة الاستعارية , فقد صدم القارئ بهذه الصورة وخرق افق توقعه , إذ وصف الحلو في ساعة غضبه مستعملا التشبيه التمثيلي ,فكان الوصف هيئة منتزعة من متعدد , فهو كالنار وضدها في الوقت نفسه , فهو يشبه النار في شدة اشتعالها , وهو ضدها إذ يشعله الماء ولا يطفئه , فاللوحة هنا شعرية إبداعية مبهرة.

ووصف غضبه بلوحة اخرى:" **انفجرت نفسه غضبا** " [105] فنلحظ أن اللفظة المفردة هي التي رسمت الصورة , فلفظة (انفجرت) قد أوحت بالكثير من المعاني , بما امتلكته من قوة تعبيرية , ومشاعر كامنة لفت نفسها لفا حول ذلك المعنى , فأوحت بالشدة والقوة والسرعة وغيرها من المعاني , فصورت حالته ببراعة بالغة.

- الايقاع في شخصية عباس الحلو

يبدأ ايقاع الشخصية بشدة ايضا ,فهو عاشق لحميدة ومتيما بها ,في حين هي لاتعلم بذلك, ومما يزيد الوضع صعوبة وجود الاختلاف الكبير بينهما , فهو " **كان بطبعه قنوعا , عزوفا عن الحركة هياب لكل جديد**" [106], وفي الوقت نفسه لم يكن غنيا ,في حين هي كانت فتاة متهورة متسلطة " **متوحشة محرومة من نعمة الأنوثة...تركزت عبادتها للقوة في حب المال على اعتبار أنه المفتاح السحري للدنيا** " [107] كما يصفها الكاتب , وهكذا نجد أن الايقاع كان شديدا ومتصاعدا في بدايته.

ولكن ايقاع قصته قد أخذ يهبط إلى الانفراج حين بدأ بمقابلة حميدة وقد صرح لها بحبه ،ويتقدم لها فتوافق على طلبه , فكأنه كما وصفه الراوي " **كان محبا صادقا , متلهب العاطفة , , وكأن يشعر حيال نظرتها...الجميلة بخضوع كلي ,ولذة لا حد لها...كأن كالحمام يحلق في السماء** " [108],

(104) م.ن 41

(105) م.ن 287.

ويستمر الايقاع بالهبوط والانفراج مدة من الزمن ,إذ يتقابلا مرات عدة ، ويتبادلا الحديث والقبل المسروقة احياناً.ولكن الايقاع يبدأ بالتصاعد إلى الشدة والتوتر حين يرجع من سفره , ويعلم أنها قد هربت مع شخص أخر " **وانفجرت نفسه غضبا...وفكرة الانتقام استحوذت على مشاعره** " [109].ثم يستمر الايقاع بالصعود والشدة , فحتى بعد مقابلته لحميدة ,لايستطيع الحصول عليها مرة أخرى , فقد تغير طريقها وضاعت في متاهة الحياة الغريبة ، وضاع حبه معها, ويبلغ الايقاع ذروته ,حين يتهجم على حميدة , فينقض عليه الجنود و"**تتقاذفه الايدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء رداً**" [110], ولا يتركه الجنود حتى يفارق الحياة.نجد أن ايقاع عباس الحلو كان ايقاعا مغلقا ودائريا ايضا فقد بدأ بمشكلة الحب ،ومعضلة الحصول على قلب الحبيبة ,وانتهى بالفراق الابدي للحب والحياة. وكذلك نجد لعباس ايقاعا آخر متولدا من علاقته بالزقاق , فكان عباس كما وصفه الكاتب زقاقي المولد والهوى ,فعلى الرغم مما كان يعانيه الزقاق من التخلف والتدهور الاقتصادي والتردي الاجتماعي , ولكنه" **لو ترك وشأنه ما اختار عن المدق بديلا , ولو لبث فيه مدى الحياة** " [111], فنجد أن الايقاع في حالة هبوط وانفراج , ففي ذلك الزقاق عاش سعيدا وقد ظفر بحب حياته ونجد الإيقاع قد أخذ يتصاعد ويشتد , ما أن يفارق الزقاق " **فما أن ترك الزقاق وراء ظهره ,حتى شعر بأن قلبه يفارقه...فأنقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا** " [112].وينفرج الايقاع حين يعود إلى الزقاق فيصفه الكاتب حين التقى بالزقاق " **ووقف الحلو بين يديه مبتسما...فضحك عباس الحلو ضحكة رنانة صاعدة من قلب جذل وقال...هذا يوم أغر من الايام المعدودة في العمر**" [113], ويشتد الايقاع حين يفارق الزقاق ويذهب إلى الحانة التي تقع خارجه , ويشتد الايقاع صعودا ,ويبلغ ذروته حين يفارق الحياة على يد عدد من الجنود في احدى الحانات لواقعة خارج الزقاق.

❖ **شعرية الشخصيات الثابتة (الثانوية)**

- شخصية فرج إبراهيم

إن التناقض التام بين الاسم والشخصية يولد ايقاعية جميلة تساعد على خلق شعرية تجذب القارئ للشخصية , فالفرج في اللغة يعني انكشاف الهم والغم ،وزوال الشدة , والراحة من الحزن أو المرض [114] ، وابراهيم اسم يدل على العظمة فهو يعني ابو الجمهور , الجامع للخير والمكارم [115], في حين أن الشخص الذي اعطاه الكاتب هذا الاسم كأن يعمل قوادا , يعيش على عرق النساء , بعد غوايتهن , والإيقاع بهن في بركة الفساد التي كان يديرها, وربما سمى الشخصية باسم فرج , لما مثلته الشخصية لبطلته حميدة إذ كان السبب الأول والوحيد في خلاصها من حياة الفقر التي كانت تعيشها ,أي كان يمثل لها الفرج. لقد كان فرج "**طويل القامة , نحيفا عريض المنكبين , حاسر الرأس , غزير الشعر , مرتديا بدلة ذات لون ضارب للاخضر , متأنقا في ملبسه ومظهره , غريبا في هذا الوسط الذي يكتنفه...كأن وجهه نحيلا مستطيلا لوزي العينين** " [116]وهكذا يستمر الكاتب بوصف شخصيته , كما يسترسل المطر , فبدأ بوصف قامته , وعرض منكبه , ورأسه , وشعره ,وملابسه , فيرسم لنا صورة متلاحمة تصف الشخصية بدقة بارعة.

ويصف نظراته لحميدة بقوله:" **بعينين تتفرسان فيها بقوة وقحة** " [117]

الصورة هنا متوهجة بالوحشية والقساوة , فاستعار تتفرسان لوصف نظرات عيونه, فصورهما وكأنهما كائن مفترس قد أنقض على جسدها , وهذه الصورة بحق أوحت بجانب كبير من شخصية فرج.وكرر هذه الصورة مرة اخرى بقوله:" **فالتقت بالعينين تتفرسان فيها بالقحة نفسها , وقد نمتا...عن ابتسامة...ولم يكتف بهذا التفرس...فصوب فيها نظرة , وصعد من شبشبها المنجرد إلى شعرها** " [118] فقد اسبغ الحياة على العينين ,فكأنهما كائن مستقل يفترس ويبتسم وينطق ,وفي قوله (صعد) تمثل هذه اللفظة مجازا

(106) م.ن 257
(107) م.ن 40
(108) م.ن 44

مرسلا علاقته جزئية ,إذ المقصود نظرة عينيه قد صعدت من شبشبها إلى شعرها تتفحصها ، وتدرسها وليس هو بنفسه , فعبر عن العين بشخصه ,أي ذكر الكل وأراد الجزء.لقد كان فرج كما وصفه الكاتب:" **يتلثم بهذا القناع الزائف من الادب والوداعة** " [119]هذا الوصف يرتقي إلى أن يكون تحليلا نفسيا للمخادع –فرج– , فأخرج كوامن هذه الشخصية بصورة عكست سايكلوجيتها الداخلية.فهو ماكر قد " **لعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار الكمان** " [120] فهذه العبارة توحي مدى تمكنه من السيطرة على مشاعر حميدة تلك المرأة الشرسة , فشبهها بالكمان بين يديه , فهو يستطيع أن يجعلها تصدر الالحان الموسيقية التي يريد سماعها.ويصف تصرفه مع النساء "**إذ ند عنها نفس حار في شبه تنهده , بذراعيه , وضمها إلى صدره رويدا حتى شعر بمس ثديها لقلبه , وراح يمسح على ظهرها براحتيه صعودا وهبوطا , وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع** "[121] لقد رسمت هذه الصورة معبد الحب الذي وقعت حميدة في شباكه , ففرج كان خبيرا بأساليب الغوص في بحر النساء من دون أن يغرق فيه , ولكنه كان يعلم بحكم خبرته أن المرأة مهما كانت قوتها هي عبد لعاطفة الحب المرتهنة لها , فهو يعرف كيف يجعل المرأة

تلين بين يديه ,وكانت هناك خطوات يتبعها بحذر للإيقاع بها , فتستسلم له تحت وطأة الحب والغريزة.وهذه الخطوات يتبعها بحذر إذ " **كان فكره أنشط من قلبه , وكان قد اجمع رآيه على خطة لايحيد عنها , فاستوى واقفا وهو يغالب ابتسامة ماكرة وقال بلهجة من يزغ نفسه عن هواها: – مهلا...مهلا...أن الضابط الامريكي يدفع خمسين جنيها عن طيب خاطر ثمنا للعذراء!** " [122]وهذه الص ورة عكست لنا مكره ,فالعاطفة والغريزة لا تستطيعان اجتياح اسوار العقل وطمس معالمه ؛ لأنها أنشط من قلبه , وحتى الابتسامة خاضعة للعقل وليس للقلب كما هو معروف.ومن اجمل الصور الشعرية الجميلة التي رسمها لفرج قوله:"**ذلك الرجل القاسي القلب الذي يتجر بالأعراض** " **(123)**, هنا استعار الصورة الاستعارية لرسم لوحته , فجعل الاعراض وكأنها شيء مادي يمكن المتاجرة به , فهو يباع ويشتري , واسند مهمة بيع هذه الاعراض إلى فرج , وعلى الرغم من أنه أناط هذه المهمة لفرج في هذه الرواية , إلا أنه جعلها صفة عامة شاملة لكل قواد , فكأن الصورة في معرض تحذير القارئ من هذا النوع من الناس.

أما الايقاع , فكان ايقاع فرج ثابتا ليس فيه صعود ولا نزول , فهو قواد ماهر , يضع خطة محكمة للإيقاع بفريسته لا يحيد عنها , فهو يمثل دور العاشق الولهان , ولا يخلع قناعه ويظهر على حقيقته إلا بعد أن يتأكد من سيطرته على فريسته , ووقوعها في شباكه , وهذا ايقاع ثابت في حياة فرج.ولكن ايقاعه متغير مع حميدة ؛ إذ بدأ ايقاعه منفرجا هابطا فيزور الزقاق من دون انقطاع ناظرا لنافذتها بلهفة أذ يمثل دور العاشق ،فنجد الايقاع بحالة الهبوط والانفراج, فيلبسها الملاءة بيده ويضع لها الشبشب تحت قدميها, ثم يبدأ ايقاعه يتصاعد بالتدريج , حين يخبرها بأنه قواد ويريدها ان تعمل معه , ويستمر الايقاع بالصعود نحو الشدة حتى يصل ذروته حين يدخل عليها غرفتها من دون استئذان بوجه المعلم الذي يغلب على وجه العاشق، فيتصاعد الايقاع ويبلغ ذروته.ويمكن ايقاع شخصية فرج على النحو الآتي:وهكذا نرى أن هذه الشخصية الثانوية لها ايقاع مهم بالرواية قد ارتبط ببطلتها وسير الأحداث , وهو ايقاع جميل ساعد على شد القارئ وجذب انتباهه.

شخصية كرشة

هذا الاسم عبر عن سايكلوجية الشخصية وصورها تصويرا دقيقا , فالكرش في اللغة الحيوان المجتر , والعشب الذي يكون ثمرة لونها رمادي مائل إلى السواد [124],

(117) زقاق المدق 167
(118) م.ن 167
(119) م.ن 167
(120) م.ن 177
(121) م.ن 208

فاختار لشخصيه هذا الاسم لأن المعلم كرشة كان يتبع غريزته الحيوانية في جميع تصرفاته , مجردا من الاخلاق والدين , لايردعه رادع عن اشباع رغباته , وهكذا نجد انجذابا تاما بين الاسم والشخصية , وهذا التجاذب قد خلق ايقاعية موحية.حتى حين وصف الكاتب الشخصية نجد الالفاظ التي استعملها قد عبرت عن شذوذه فيقول:" **خطواته ثقيلة...عيناه المظلمتان المختفيتان تقريبا...شارف...الخمسين عاش عمره في احضان الحياة الشاذة** " [125] فالألفاظ موحية تضيء للقارئ جزءا من شخصية المعلم كرشة , فاستعار الثقل للخطوات , واستعار الظلام للعيون , واستعار الشذوذ للحياة , كل هذه الاستعارات من الالفاظ الموحشة , قد عرضت حياة المعلم كرشة للقارئ ,ودرجة انحرافه.ويوضح الكاتب شخصيتة المنحرفة اكثر حين وصفه:"**هو فريسة الشذوذ** " [126], فالفريسة هو الحيوان الضعيف الذي يكون طعاما سهلا لغيره من الحيوانات , وشبهه بهذا الحيوان ليوصل للقارئ مدى خضوعه لرغباته الحيوانيه , وانسياقه لنزواته.ولكي يكمل الكاتب رسم لوحته الرائعة قال **لم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التي يغط فيها إلا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة** " [127], فاللوحة جميلة يتربع المجاز على الفاظها , فلا يكاد يغادر عبارة من عباراتها , فجعل السرور كأنه شمس في الشتاء دفئها يبعث السرور , ولكن هذا الدفء لم يشمل الجسم فقط بل من شدته قد دخل إلى قلبه , وشبه الشهوات بالأمواج العنيفة للبحر , فالشهوات مهلكة للإنسان , مثلها مثل الامواج , بل قد تتجاوز خطورة هذه الشهوات الحيوانية , قوة وخطورة امواج البحر العنيفة.وهكذا نجد الكاتب قد حطم اللغة وأعاد بناءها من جديد مقيما بينها علاقات نابعة من رؤيته وخياله الخصب , فكان متمكنا من لغته , يشكلها كيف يشاء.

❖ **الانزياح في وصف الشخصيات**

الانزياح أداء فني رفيع يثير التأمل ,فيستوقف القارئ , لأنه يحتاج وقتا لاستيعابه واستثماره , فيثير الاحساس بالجمال , ليبلغ التأثير حده , ولذلك لم يتردد نجيب محفوظ في استثماره في وصف شخصياته , ففي قوله: " **يكاد يطير من جلده فرحا** " [128], ان النحو هو الركيزة التي تستند إليها الدلالة , فمجرد ما يتحقق الانزياح بدرجة معينة عن قواعد وترتيب وتطابق الكلمات تذوب الجملة , وتتلاشى درجة قابلية الفهم , وهذا ما نلحظه على هذه الجملة , فعندما نفكك الجملة لانرى مسندا ومسنداً اليه واضحا , فالجملة غير معقولة , فكأننا أمام صف من الكلمات لا شيء يجمعها غير الرابط التركيبي , وذلك لأنها مليئة بالانزياحات.وقوله" **اخلع رداء هذه الحياة القذرة** " [129] لقد لجأ الكاتب هنا الى الانزياح لجعل الالفاظ تعبر عن تجربة باطنية خاصة ببطله , وليس تجربه خارجية خاصة بقانون اللغة , إذ حطمت هذه العبارة القانون اللغوي فجعلت للحياة رداء , وانسب لها صفة القذارة , وهذا شيء غير مألوف.أما " **لا تسلقي الزقاق بلسانك** " [130], يجد القارئ نفسه واقفا بين يدي جملة متنافرة , غير معقولة , فالسلق للطعام , والزقاق مكان , واللسان عضو من اعضاء الانسان , ولكن هذا الانزياح الذي استعمله الكاتب قد أوحى للقارئ أن بطلة الرواية كانت امرأة سليطة اللسان , بذيئة الخلق. **وفي قوله:" أفكارها الوردية " [131] استعمل التراسل بين الحواس , فالألوان تدركها حاسة البصر , والأفكار شيء معنوي عديمة اللون ,فهنا الكاتب استعمل الانزياح الدلالي لوصف التفاؤل الذي اصاب شخصية الست سنية , مجرد سماعها لسيرة الزواج.وكذلك قوله لوصف اتحاد شخصياته في الحب:" لغة الأعين" [132]**

حصل هنا تراسل بين حاستي اللسان والبصر إذ ان اللغة للسان وليست للعيون , وان مجال العيون هي الرؤية , فهنا انزاحت لفظة (اللغة) من حقلها الأصلي اللسان , الى حقل دلالي جديد وهي العين.ومن الانزياحات قوله في وصف الحب:" الحب الناعم" [133] فهنا قد حصل تجاوب بين الحواس ,أي تداعي الاحساسات المنتمية الى سجلات ثابتة , وفق قوانين جديدة , فنجد الاحساس النفسي قد تجاوب مع حاسة اللمس , فالحب حالة شعورية نفسية , والنعومة صفة تدركها حاسة اللمس.وقوله في وصف فرج

(128) م.ن 56
(129) م.ن 178
(130) م.ن 40
(132) م.ن 30

حين رفضت حميدة الذهاب معه:" فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدي " [134] فاستعمل هنا الانزياح لوصف صدمته وخوفه وصفا حسيا , إذ نجد الكاتب قد تلاعب بالألفاظ , وحصل تراسل بين العين والفم , فالابتسامة مجالها الفم , فاستعارها الكاتب ، ونقلها وخلق لها الجو المناسب لتلائم حاسة العين , وقد نجح في ذلك.

❖ **شعرية (الزمان والمكان)** في رواية زقاق المدق

إن وصف البيئة التي يتحرك عليها الاشخاص وتجري عليها الاحداث هو الذي يقربها من الواقع ويعطيها صورة قريبة من الواقع ،ويخلصها من اثار الحكاية التي كانت تقترن بالأمور الغيبية والعجائب , فرسم الحدود الزمانية والمكانية له دور كبير ومهم في الرواية فعن طريق الرسم الدقيق للبيئة يستغني الكاتب عن اللجوء الى الصدفة والمفاجأة في سرد احداث روايته ,لان سلوك الشخصية الروائية وحركتها يرتبطان بالمناخ الروائي ارتباطا وثيقا.وسنبدأ بـ:

1- شعرية الزمان

كل رواية عبارة عن سرد لأحداث وقعت في حقبة زمنية معينة ,لذلك يرتبط الزمن بالسرد ارتباط وثيقا, بل إن من أدوار الرواية حاليا تصوير الصراع بين الانسان والزمان. [135] فالزمن يمتد ليكون ضابطا لحركة الفعل ، وجريان السرد في الرواية والكشف عن تطورات الأحداث وما يطرأ عليها وعلى الشخصيات من تغيرات.ويختلف مفهوم الزمن في الرواية الجديدة عنه في الرواية التقليدية، فإذا كان الزمن في الرواية التقليدية يعني الماضي فحسب، فإنه أصبح في الرواية الجديدة يعني مدة التّلقّي أو القراءة أو الكتابة والمدة الزمنية التي جرت فيها الاحداث...الخ [136]ولكل رواية نوعان من الأزمنة [137]:زمن خارجي, ويشمل زمن الكتابة وزمن القراءة , وزمن داخلي, ويمثل الزمن الدلالي الخاص بالعالَم التخييلي للرواية.وخصائص الزمن لاتتوقف عند حدود التتابع والتسلسل,بل برزت تقنيات سردية زمنية جديدة لجأ اليها اللغويون للتخلص من وطأة الزمن ،وجبروته لتحطيم تسلسله بالتذكر والارتداد والتداعي وتيار الوعي وغيرها. [138]إن واقعية الرواية قد جعل لها زمنان , زمن خارجي , وزمن داخلي، الخارجي هي الأحداث الزمنية التي ساعدت على خلق الرواية , والداخلي هي الرابط التخييلي الذي يربط سرد الاحداث.

1-الزمن الخارجي: فهو تاريخي ، ويمثّل ذاكرة الكاتب ، حين يعرض لأحداث وقعت بعد الحرب العالمية الثانية , مؤكداً حتمية الضياع الذي أصاب كل انسان حي .وهو يبدأ في كتابة روايته بعد انتهاء الحرب بعامين.لقد صور فيها حركة الاضمحلال، ومأساوية المصير الإنساني ونهايته المحتومة، بعد انتهاء الحرب , فأبطالها اناس عاشوا في تلك المدة بحارة صغيرة من حارات القاهرة ,فظهرت في الرواية صور الفقر والحرمان والضياع والانحراف والتفكك والتشتت الذي اصاب الشعب المصري في تلك الحقبة الزمنية.ونجد الزمن الذي كتب الراوي فيه روايته يعد زمنا خارجيا , فالراوي كتب روايته بعد عامين من انتهاء الحرب , أي بعد ان بدأت أثار الحرب تظهر واضحة جلية , فاستمدها الراوي ووظفها في روايته.

2-الزمن الخارجي: إن الزمن الخارجي للرواية كما لاحظناه كان خاليا من الشعرية والجمالية , فهو مجرد عرض للظروف الزمنية التي كتبت فيها الأحداث , لذلك نجده جامدا خاليا من الروح , لا يتعدى وظيفة اخبار القارئ.

أما الزمن الداخلي , فهو يمثل قمة الشعرية , فهو لا يجري على وتيرة واحدة , ولا يتخذ إيقاعا محددا , فالكاتب يتبع طرق متعددة ومتشعبة في سرد الأحداث الزمنية.

فالكاتب يبدأ روايته بقفزة زمنية , حيث يصف الزقاق من سنين عدة مضت , من دون أن يخبرنا بتفاصيل الأحداث التي وقعت فيه , فحذف الكاتب صراحة حقبة زمنية كبيرة من عمر الزقاق , وهذه القفزة أفاد منها افتتاحية لعرض الأحداث , ورسم الخريطة الزمنية للزقاق.ثم يبدأ بسرد الأحداث بزمن تخييلي , لا يخضع لتسلسل واضح , فيبدأ بالغروب فيقول:" **آذنت الشمس بالمغيب** " [139] لقد رسم هنا صورة رائعة ومؤثرة لزمن (الغروب) , فصوره بهيئة شخص يطلب الآذن للرحيل ,وقد نجح الكاتب في هذه الصور ,إذ ربط الغروب بالضياع والتدهور الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يعيشه الزقاق وأهلهويرسم لنا الكاتب صورا أخرى للزقاق , وهي صورة لامعة بالشعرية والإيقاع ," **سكنت حياة النهار , وسرى دبيب حياة المساء** " [140] , فاستعار الحياة للنهار

وجعلها مستكينة هادئة , واستعارها للمساء أيضا, وجعله كأنه مولود جديد دبت الحياة فيه حديثا.ثم نجده يكسر التسلسل الزمني فبدلا من أن يعرض الزقاق في وقت النهار , يصف الزقاق في وقت المساء مرة اخرى , فيقول:" **ساد الظلام الزقاق** " [141] إلى أن يقول:" **حتى منتصف الليل** " [142] من دون المرور بمدة الصباح أو الظهيرة , وكأن الكاتب كان هدفه الحدث وليس الزمن.وفي قوله:" **لمعت أسنانه الذهبية في الظلام** " [143]

فنجد أن الشعرية بقيت مخلصة في عرض الزمن ووصفه , فـ (لمعت) كناية عن شدة الظلام في تلك الليلة ,فهي ليلة خالية من ضياء القمر بحيث برز لون اسنانه الذهبية ساطعة لشدة ذلك الظلام ,وهكذا نجده قد رسم الليل بطريقة غير مباشرة , ولكنها مشحونة بالتأويلات والإيحاءات الجميلة.وهكذا نجد لا عقلانية الزمن في هذه الرواية , ففي بعض الأحيان نجده ينتقل بسرعة من الحاضر إلى المستقبل , ففي قول الراوي:" **واستسلم جسمها للسيارة المندفعة , التي تهرب بها من الماضي** " [144], نجد الكاتب هنا استعمل السيارة ليصف سرعة الزمن الهائلة التي تنقل الشخص من الماضي إلى الحاضر ثم إلى المستقبل. وهنالك ألفاظ اخرى في الرواية قد أشارت إلى سرعة الزمن مثل قوله:" **سرعان ما أدركهن تبدل وتغير في ردح قصير من الزمن , شبعن بعد جوع , وكسين بعدعرى , وامتلأن بعد هزال** " [145] فالكاتب هنا استعمل لفظة (ردح قصير) للإشارة الى سرعة الزمن , وكذلك نجده قد استعمل هنا تراتبية زمنية جميلة في عرض تغير الأحداث وتبدلها باستعمال الظرف (بعد) , واستعمل كلمة (قبيل) ايضا للإشارة الى هذه التراتبية عند حديثه عن السيد رضوان " **وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى** " [146].ونجد في الرواية انساقا زمنية متعددة , ففيها نلحظ نسقا زمنيا صاعدا , إذ نلحظ تتابع الأحداث التي أخذت تسترسل كما تسترسل حبات المطر, كتتابع الجمل على الورق , حتى تخلق سلسلة زمنية تربط الأحداث و تؤدي بدايتها إلى نهايتها , من ذلك سرده لقصة حميدة , فيصف ولادتها فيقول عن أمها: " **ماتت... تاركة طفلها في سن الرضاعة** " [147]، ثم يعرض صورتها في شبابها بقوله:"**لن يلم الله شعثك برجل** " [148], وهكذا نراه يستمر بعرض حياة حميدة متبعا نسقا زمنيا متصاعدا من الماضي الى الحاضر والمستقبل.

كما نلمح استعماله نسقا زمنيا متقطعا , فهو قد سرد قصة الست سنية , ووصف الصراع الذي حدث بين حميدة وامها , ثم يقطع الزمن ليصف حميدة , بعدها يعود لإكمال الصراع , ثم يترك الصراع قائما , ويذهب لوصف حال الزقاق في الثلث الاول من النهار , ثم يصور العم كامل وعباس يأكلان الطعام ويتحدثان , ويقطع الحديث ليصف عباس الحلو , وهكذا نجد النسق الزمني متقطعا واستطراديا لجأ اليه الكاتب ليطيل عمر روايته , ويثير الحماسة والرغبة في المتابعة في نفس القارئ , ويدفع عنه السأم والملل.وفي حدث أخر استعمل النسق الزمني الهابط, فنراه في عرض قصة صانع العاهات (زيطة) يعود بقصته الى الماضي باستعمال التذكر , فيقول على لسانزيطة:" **كنت يوما ما مولودا سعيدا , تلقفته الايدي بالسرور** " [149]، فنلحظ أنه قد رجع إلى الماضي باستعمال التذكر على لسان شخصيته , فكان نسقا زمنيا هابطا يتجه من الحاضر الى الماضي.واستعمل الكاتب نفس النسق الزمني حين عرض لصداقة حسين كرشة وعباس الحلو , بقوله:" **رأيا نور الدنيا في بيت واحد** " ,[150]وهنا كناية عن يوم ولادتهما , ف (رأيا) اشارة الى اللحظة الاولى من ولادتهما , وهذه كناية رائعة.

ونجد النسق الزمني الهابط في اخبار القارئ بالفارق الزمني بين عمر الصديقين , " **بيد ان عباس الحلو رأى هذا النور الدنيوي قبل صاحبه بثلاثة اعوام** " [151]

وهناك اسلوب زمني اخر استعمله الكاتب في سرد احداثه , فقد لجأ الى الوقفات الزمنية للوصف ,الذي يقتضي من الكاتب اقتطاع السيرورة الزمنية والاستراحة للوصف , وهذه الوقفات كثيرة في رواية زقاق المدق منها قوله:" **قال زيطة ذلك وهو يتفرس وجه رجل**

(149) م.ن 6

(150) م. ن7

(151) م.ن 111

عجوز... يمثل بين يديه في خضوع واستكانة..كان رث الجلباب , نحيل الجسد..." [152] نلمح هنا أنه قطع السيرورة الزمنية للأحداث ,ليصف الرجل الذي كان يحاوره زيطة.

2- شعرية المكان

تمثل بيئة العمل المكان الذي تجري فيه الاحداث بما فيه من عناصر درامية ، ومن شروط المكان أن يحدد تحديدا كاملا ,زمانه وشخوصه وعاداته وتقاليده, لأن نوع المكان يؤثر في أخلاق الشخصيات وعاداتها وزيها ولهجتها كما يؤثر في طبيعة المواقف والمشكلات والصراعات التي تحدث داخل الرواية. [153] كما يشترط أن يكون المكان واسعا في مساحته التي تتحرك عليه الشخصيات بحرية وتجري عليها أفعالها,والمؤلف المبدع هو الذي يرسم علاقة الاشخاص بالمكان من حيث العداوة والألفة والانتماء وغيرها.[154]لقد استعمل الراوي المجاز في نقل الأحداث ووصف الشخصيات , كما نجد أيضا غزارة المجاز وطرافته في وصف الامكنة في رواية زقاق المدق , فنجد الكاتب قد أعطى للزقاق – المكان – دور البطولة , فهو البطل الحقيقي في الرواية ,إذ إنه حول المكان – الزقاق – من حالة الجمود إلى الحياة , إذ اضفى عليه الصفة الجسمية أو التشخيص , فحوله إلى كائن حي له قصة تروى وأحداث وظروف يمر بها , فهو يحزن ويفرح ويتفاءل وغيرها من الصفات الإنسانية

فأول ما تطالعنا به الرواية هو وصف الزقاق , وكأنها تصف لنا شخصا له ماضيه وتاريخه وانجازاته , فيبدأ بالقول:" **زقاق المدق كان من تحف العصور الغابرة , وأنه تألق يوما في تاريخ القاهرة كالكوكب الدري.أي قاهرة أعني ؟... الفاطمية؟...المماليك؟...السلاطين؟** " [155]

فالراوي هنا يصف ماضي الزقاق حين كان في ذروة شبابه , وكانت له سمعته وأعماله التي يفخر بها الى اليوم ,إذ كان له دور كبير في حياة القاهرة حين كان ينير أيامها كالكوكب الدري , فالتشبيه رائع جدا , فصورة الزقاق التي رسمها لنا الراوي, تشبه الى حد كبير صورة الشاب الذي يكون في شبابه قمة في التألق والانجاز ومفعما بالحيوية.أما قوله:" **طريقه المبلط بالحجارة...قهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الدرابيسك...وروائح قوية من طب الزمان القديم...يعيش في شبه عزلة , عما يصدق به من مسارب الدنيا**" [156], فهذه الصورة ترسم لنا حال الزقاق في شيخوخته , فالطريق المبلط بالحجارة ,والقهوة التي يرتادها الكهل من الرجال , والشاب العاطل عن العمل – فالقهوة كما هو معروف لا يرتادها الشاب المفعم بالحركة والنشاط, والعزلة التي يعيش بها , كلها توحي بأن الزقاق يمر بمرحلة الشيخوخة ,ثم يبدأ الراوي بوصف هذه المرحلة من حياة الزقاق , وابتدأ الوصف بزمن الغروب وما يحمله هذا الزمن من دلالات الافول والانتهاء , كل هذا يوحي بان البداية ليست إلا نهاية سلفا.

وهكذا يمضي الكاتب بالأوصاف للزقاق بلغة شعرية ثرية في سياقاتها ومؤثرة في دلالاتها , فيفاجئ المتلقي بما يستعمله من تعابير مجازية ,فيصف الزقاق بأنه صامت هادئ يعيش حياة روتينية , ولكنه يعيش صراعا داخليا بين مجده وأثاره وثقافته التقليدية , والثقافة الوافدة عليه بمجيء الانكليز, وهكذا نجد الزقاق يعيش صراعا من اللحظة الأولى في الرواية

وقوله " **التف زقاق المدق في غلالة سمراء من شفق الغروب , وزاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة... وكاد الزقاق يغرق بالصمت** " [157],فالصورة هنا ترسم لنا حال الزقاق بمجيء الغروب , وهو يشبه الى حد كبير احساس الإنسان العادي بهذا الوقت ,إذ يهيج وقت الغروب آلامه وأحزانه فيلتف على نفسه , وتزداد وحدته , والذي يزيد من هذه الوحدة هو عيشته وحيدا ومنعزلا بين جدران ثلاثة فيغرق في صمته تاركا الحديث لآلامه لولا " **قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية** " [158]

لكان الزقاق مات غما وهما.وكذلك قول الكاتب:" **لا تزوره الشمس إلا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله**" [159] فهذه العبارات توحي للقارئ بالوحدة التي كان يعيشها الزقاق , فحتى الشمس الحرة في حركتها , الكريمة في عطائها ,ذات السلطة الواسعة التي تزور جميع الاشخاص وتجوب الأقطار , لاتستطيع أن تتخطى الحصار المفروض على الزقاق , والمحيط به, إلا حين تشارف كبد السماء وهذه كناية عن وقت الظهيرة حين تكون الشمس عمودية. ومن هذا يتضح أن الكاتب له قدرة عالية على اختيار الألفاظ من رصيده اللغوي , فينتقي منها ما له امكانية التصوير والخلق والإيجاد , ولم يستعمل الراوي الشعرية

في عرض الزقاق فقط , بل استثمرها ايضا في وصف الكثير من الأمكنة التي وردت في الزقاق منها قوله واصفا صالون الحلاق:"**دكان صغير يعد في الزقاق انيقا ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن** " [160],

فعلى الرغم من انه استخدم الالفاظ بما تدل عليه في دلالتها المعجمية , إلا انه رسم للقارئ صورة فوتوغرافية , تماما مثل الفنان التشكيلي.وهذا ما نجده ايضا في وصفه لقهوة المعلم كرشة:" **حجرة مربعة الشكل في حكم الباليه ، تزدان جدرانها بالأرابيسك , ليس بها من مطارح المجد الا تاريخها ,...وعند مدخلها كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها , وتفرق نفر قليل بين مقاعدها** " [161]، فالكاتب مزج بين الحقيقة والمجاز في وصف القهوة , فهو وصفها بأنها مربعة الشكل , وهذا وصف حقيقي , ولكنه سرعان ما هرع الى المجاز لتقريب الصورة ورسمها بإتقان (في حكم الباليه) , وكذلك وصف بساطتها باستعمال الكناية , حين قال " ليس لها من المجد إلا تاريخها ",أي أنها بسيطة في غاية البساطة فليس فيها شيء متكلف وثمين على الرغم من مجدها وتاريخها الطويل المعروف لها , فحتى المذياع كان (نصف عمر) كما عبر عنه , وهو كناية عن قدمه , لأن العمر للكائن الحي , والمذياع جماد ,فاستعار (العمر) ليصف لنا شكله , فهو قديم ومستعمل من قبل.

أما قول أم حميدة عندما وافقت ابنتها على الزواج من عباس " **هذا عمل النافذه وراء ظهري** " [162] فهنا جعل الراوي للنافذة دورا مهما وكبيرا في سير الأحداث ,وهكذا نجد المكان الذي اختاره الكاتب ووصفه بدقة أغناه عن اللجوء إلى المصادفة التي أعتمد عليها الكثير من الرواة.

- **إيقاع (الزمان والمكان)**

نلحظ في هذه الرواية ان ايقاع المكان مرتبط ارتباطا وثيقا بايقاع الزمان ,فلا يمكن الفصل بينهما , بل يستحيل ذلك , فحال المكان يخضع للزمن , ففي بداية الرواية نجد ان ايقاع المكان والزمن يميلان للشدة فالشمس مائلة الى الزوال و" **كاد المدق يغرق في صمت** " [163], ولكن إيقاع المكان والزمن يميل للانفراج والهبوط في " **الثلث الأول من النهار** " [164] إذ تزور الشمس الزقاق ناشرة ضياءها في اركانه , وتبعا لذلك يهبط إيقاع المكان ايضا إذ " **النشاط يدب في الأركان منذ الصباح الباكر... صبي القهوة يهيئ المقاعد ويشعل الوابور , ويتوافد عمال الوكالة ازواجا وأفرادا... عم كامل يفتح الدكان وتناول الافطار** " [165].ويشتد إيقاع الزمان والمكان حين يقع السيد علوان بين أحضان المرض وينقل للمستشفى " **واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء** " [166].

ثم ينفرج ايقاع الزمان والمكان حين يشهدا على زواج الست سنية بعد عزوبيتها التي دامت ثلاثين سنة , وهكذا نرى ان ايقاع الزمان والمكان ارتبطا بأحداث الشخصيات ارتباطا وثيقا.

وأحيانا نجد ان ايقاع المكان يفترق عن ايقاع الزمان , فمثلا، الليل يمثل إيقاعا زمنيا شديدا , بينما المكان في هذا الوقت يزهو بأنوار قهوة المعلم كرشة المليء بالصخب الناتج عن اجتماع أهل الزقاق في القهوة يتسامرون ويتحدثون ويدخنون النركيلة وغيرها , فيمثل هذا ايقاعا منفرجا للمكان.ونجدهما ايضا يتباينان في الأيقاع في مواقع اخرى من الرواية , حين يكون الايقاع الزمني هابطا منفرجا ويصفه الراوي بالقول:" **أضاء الصباح...,وألقت الشمس شعاعا من اشعتها على جدران الوكالة** " [167] فالايقاع الزمني في قمة الانفراج فكأن الشمس تضحك للزقاق وتداعبه بأشعتها الجميلة , ويأتي حسين بخبر موت عباس الحلو , فيشتد إيقاع المكان ويتصاعد , إذ يضج الزقاق لذلك الخبر "**فزعا من الموت الذي اقتحم الزقاق ,فأثار مخاوفه , وضاعف آلامه , فعاودته الافكار السوداء** "[168]وهناك إيقاع أخر استعمله الكاتب في الزمان والمكان , وهو الإيقاع الصوتي الذي يتولد من التشابه الصوتي بين الألفاظ الداخلة في تكوين العبارات , والموازنة بين العبارات الدخلة في التركيب , ففي قوله:" **عاد الزقاق رويدا رويدا إلى عالم الظلام** " [169], نجد أن التردد الصوتي الناتج عن تكرار كلمة (رويدا) قد حقق إيقاعا صوتيا يتفاعل مع الزمن , فأوحى الصدى الصوتي الناتج من التكرار ببطء الزمن وخفيته , فكأنه يتسحب.

وفي قوله " **أي فائدة تجنى من ذكر الماضي الآن ؟ لقد مضى وانقضى..**" [170], فقد ساعد التجنيس غير التام بين (مضى وانقضى) على تقوية جرس الكلمات ,فأعطى للزمن غنائية نغمية عالية , وساعد حرف المد الطويل الألف الذي انتهت به الكلمتين على الإيحاء باستحالة الرجوع إلى الزمن الماضي.

- **الانزياحات** في وصف الامكنة والازمنة

كما مال الكاتب – في بعض الأحيان – إلى استعمال الانزياحات في سرد الأحداث ووصف الشخصيات , استعمل الانزياح في وصف المكان وتحديد الزمان ,ليبتعد عن التقريرية , والوصف المباشر , واللفظ المستهلك في الحوار اليومي , وليجعل عباراته تحمل زخما عاليا من الثراء الغوي.فحين وصف وحدة الست سنية بقوله:" **في البيت وحدك , وفي الطريق وحدك وفي الفراش وحدك** " [171] فحصل هنا انزياح نحوي,إذ قدم الجار والمجرور , على المعمول , والتقديم هنا لتوجيه العناية الى المكان , فنلحظ (في البيت , في الطريق , في الفراش) , فهذه التقديمات اعطت عناية للمكان ووجهت الاهتمام إليه , لأنه اول ما ابتدأت به الجملة , وأول ما وقع عليه النظر , واستعمل الكاتب هذا الانزياح التركيبي ليجذب انتباه القارئ إلى أهمية المكان في الأحداث. ونلاحظ في قوله:" **نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته** " [172] , فالعبارة يحيط بها غير قليل من الحرج , بسبب الانزياح الدلالي الذي حصل للكلمات الداخلة في التركيب , ولكن هذه الانزياحات قد خلقت كثيرا من الايحاء الذي عكس شدة ظلام الليل.ونلمح مما تقدم أن الانزياح قد تضافر مع الفنون الأخرى لخلق شعرية الرواية , وهو لا يقل شأنا عن غيره من الفنون التي ساعدت في نسج الرواية على هذه الصورة الرائعة.

الخاتمة:

وفي ختام رحلتي العلمية , لابد من استعراض لأهم النتائج التي توصلت إليها في هذه المسيرة:

1- كانت لغة الرواية لغة فنية عالية , تحمل طابعا قصصيا ممتعا ,وتتصف بقدر كبير من الجمالية والشعرية, فضلا عن امتلاكها للطاقة التعبيرية العالية التي سهلت على القاص تحقيق هدفه في الرواية.

2- إذا قسنا رواية زقاق المدق بمقياس المدرسة الاجتماعية في الروايات التي عاصرتها , نجد انها تقف على قدميها بوصفها دراسة فنية لقطاع من المجتمع المصري اثناء الحرب العالمية الثانية , بما تحويه من نماذج فريدة ومختلفة مثل شخصية حميدة والمعلم كرشة وفرج...الخ

3- نجد في الرواية على الرغم من واقعيتها غزارة المجاز وطرافته لتدل من غير شك على خصب خيال الكاتب نجيب محفوظ ،وقدرته على تاليف تراكيب شعرية بطريقه بارعة قلما تخطر على البال.

4- استخدم الراوي تقنيات متعددة في آن واحد ,ولذالك كانت لغته مركبة من خيوط متعددة,ومن هنا نلاحظ ان لغة الرواية عبارة عن نسيج مكون من خيوط كثيرة متداخلة ومتشابكة بعضها مع بعض ، لتعكس من خلالها رؤية الكاتب الحياتية بطريقة جمالية خاصة لا يشبهها أي جنس ادبي اخر

5- مثلت الرواية نغمة واقعية في معزوفة روايات نجيب محفوظ , فهي تشير الى قوانين المجتمع وتغوص في ابعاده الفلسفية

6- رسم لنا الكاتب لوحات شعرية تجلت فيها شخوصه , راسما حركاتهم , وموضحا نواياهم بلغة فنية عالية ،من غير ان يسرف اسرافا مخلا في التحليل النفسي.

7- يتخذ المكان في هذه الرواية اهمية خاصة ,وهذا بطبيعة الحال يتفق مع خط نجيب محفوظ في اهتمامه بالعلاقة المكانية الذي استمر معه طوال رحلته الروائية ,ويظهر هذا واضحا في هذه الرواية التي لعب المكان فيها الدور الرئيس بكل مافيه من قيم ذات طابع شمولي فنراه يحرك الأحداث والشخصيات من خلال علاقتها بهذا المكان.

خلاصة الأمر أن سيرة نجيب محفوظ كلها تنطق بالنجاحات الباهرة , سواء أكانت رواياته واقعية ,أو رمزية ,أوتاريخية , فكلها كانت في غاية في الابدع ,فهو له طريقة خاصة في توليد المعاني وجعل عباراته مثيرة , وممتعة للغاية

❖ **قائمة المصادر والمراجع**

- **القرآن الكريم.**
- **أولاً: الكتب المطبوعة:**
- بنية اللغة الشعرية: جان كوهن ' ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ,دار توبقال للنشرط1، القاهرة ,1986.
- التصوير الفني في خطب الإمام علي(عليه السلام): الدكتور عباس علي حسين الفحام ,ط 1 , مؤسسة دار الصادق الثقافية ،عمان ، 2012م-1433 هـ.
- الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ , سليمان الشطي ،المكتبة المصرية للطباعة والنشر ،القاهرة ، ط1 , 1976.
- زقاق المدق: لنجيب محفوظ , دار الشروق،القاهرة , ط5 2014.
- الزمن في الرواية:مها حسن القصراوي, الناشر مؤسسة الربية للدراسات والنشر , بيروت ,ط1، 2004م.
- سيمولوجية الشخصية الروائية: فيليب هامون , ترجمة سعيد بنكراد , تقديم عبد الفتاح كيليطو , دار الحوار ،ترجمة بنكراد،سوريا ،ط1، 2013
- الشخصية في القصص والأمثال العربية (دراسة في الانساق الثقافية للشخصية العربية): للدكتور ناصر الحجيلان ,النادي الادبي بالرياض والمركز الثقافي العربي,ط1، 2006 م.
- في النقد الادبي الحديث: الدكتور حسن الخاقاني ,مكتب الباقر للطباعة،بيروت، , ط1 ,2010.
- القاموس المحيط: للعلامة محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز ابادي (718)هـ ,تحقيق د. يحيى مراد, مؤسسة المختار للطباعة والنشر ،القاهرة ، ط 1 ،1429-2008م.
- قراءة النص الأدبي (مدخل ومنطلقات): للدكتور نضال محمد فتحي الشمالي , دار وائل للنشر , العراق ، ط 1 , 2009.
- قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ (دراسة تحليلية لأصولها الفكرية والجمالية): نبيل راغب , الهيئة المصرية العامة للكتب,ط 2 , 1975.
- لسان العرب: للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري , دار صادر
- بيروت , ط1 ، 2000.

ثانياً: الدوريات:

- حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية , الدكتور أحمد الزغبي , العدد السادس عشر,1414هـ-1993م.
- **ثالثاً: الرسائل والأطاريح الجامعية:**

الايقاع وعلاقته بالدلالة في الشعر الجاهلي ،الباحث أحمد حساني ،أطروحة دكتوراه ،كلية الآداب واللغات ،جامعه الجزائر